اعمر رامي

ربيع الإرهاب في الجزائر

... شهادات وحقائق صادمة
عن جرائم DRS

ترجمه إلى اللغة العربية

ن. ب.



تم العمل على نقله بواسطة

(J A W A D)

إخراج نهائي

عصام سلطان

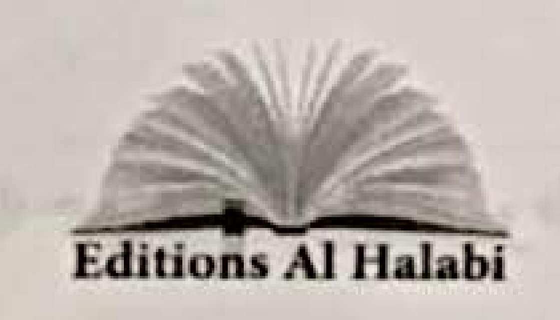
Essam Sultan

اعمر رامي

ربيع الإرهاب في الجزائر
... شهادات وحقائق صادمة
عن جرائم DRS

ترجمة إلى اللغة العربية

ن. ب.



Editions Al Halabi

الكتاب : ربيع الإرهاب في الجزائر

... شهادات وحقائق صادمة عن جرائم DRS

المؤلف : اعمر رامي

ترجمهُ إلى العربية : ن. ب.

الإيداع القانوني : 2022 MO 0392

ردمك : 978-9954-731-34-5

الناشر : منشورات الحلبي – الرباط – المغرب

البريد الإلكتروني: edit.alhalabi@gmail.com

الهاتف: 0537.588.188 - 0677.499.244

الفهرس

شكر وتقدير
لأهم امرأة في حياتي

إلى تلك المرأة المميزة التي تبعت زوجها كظله وساندته في لحظات الشقاء إبان الثورة. إلى تلك المرأة الجسورة التي دعمت ابنها طيلة العشرية الدموية وشاركته جميع خطواته. إلى تلك المرأة التي أجابت بخشونة أحد عملاء المخابرات: «إذا كان ابني إرهابيا فهو في جبهة القتال، لديك سلاح مثله تماما، فإن كنت تملك شجاعته فاذهب للبحث عنه».

وأضافت: «في المرة القادمة حين تعود إلى هنا لا تناديني «يما»، فأنا لست أمك بل والدة من جعلت منه عدوا لك».

إلى تلك المرأة التي حمتني ونصحتني وأحاطتني برعايتها طيلة حياتي، إلى تلك المرأة التي أحبتني وغفرت زلاتي....

أهدي هذه المذكرات المتواضعة آملا أن تكون رمزا لمساهمتي في انتفاضة الشعب الجزائري الذي يطمح إلى ترسيخ دولة القانون، لن يكون فيها عصر الهيمنة العسكرية سوى انتكاسًا عرضيًا لابد من طمسه من الذاكرة.

تلك المرأة هي والدتي التي أدعو الله أن يتغمدها في كنف رحمته ويسكنها فسيح جناته.

تقديم

هذه المذكرات المتواضعة حول جرائم التعذيب الممنهج تضم روايات ضحايا ما زالوا على قيد الحياة وتمت كتابتها بأسلوب بسيط وواضح لتكون فرصة لتسليط الضوء على تلك العشرية الدموية التي صنعتها أيادي جنرالات سفاحة.

تلك الفترة السوداء بلحظاتها المأساوية المحفورة في تاريخ هذا الشعب تأبى أن تدخل طيّ النسيان؛ فترفض الرحيل مع كل روح تدبّ في رفات ضحايا خالد نزار وتوفيق مدين.

مقدمة

إن كنت تتساءل لما أنا لست بريئا ولما لا أحيد عن رؤيتي السياسية وانحيازي لقادة الجبهة الإسلامية للإنقاذ؟ فسأجيب ككل مرة وأكرر بكل وضوح وبساطة: أنا رجل حر ومواطن جزائري قائم بذاته، فأنا لست بريئا إذا ما كان ذنبي عصيان ومقاومة وتحدي عملاء نظام غير شرعي انبثق عن انقلاب يناير لعصابة من الجنرالات، بل حاربت الطغمة العسكرية فخسرت جولة لكنني نجوت وصمدت لأواصل النضال.

أما إذا كان السؤال: كيف كان سيكون موقفي بعد التجربة التي مررت بها أو ما هو موقفي حاليا؟ فأنا لا أشعر بالندم على كل ما فات ولا حتى على قطرة دم أرقتها من جسدي، فلو سنحت لي الفرصة مرة ثانية لبذلت قصارى جهدي دون نقاش، بل أنا على يقين لو أن الصحوة الحالية للحراك كانت موجودة آنذاك لكنا قد توصلنا إلى تغيير جذري حقيقي.

فبالنسبة للجزائر التي تربص بها الأوغاد من مختلف مصالح الأمن والجيش وأحكموا قبضتهم على القضاء لاستخدامه كأداة قمع ضد المواطن البسيط، لا زلت أؤمن أنه من الضروري والأساسي حماية حقوقي بما في ذلك الدفاع عن

النفس من أي محاولة اعتداء أو اختطاف أو هجوم في حدود الوسائل المعقولة والمناسبة حسب الحالات التي نواجهها.

كيف كان من المفترض أن يكون سلوكي وأنا محاط بجماعة من الرجال المسلحين المرتدين والملثمين بالأسود وأنا أعلم أن أحد أصدقاء طفولتي قد وُجد مؤخرا على بعد خطوات من منزلي ملقى على الطريق وقد اخترق جسده قضيب حديدي على يد نفس الرجال.

إنه شيء نابع من المنطق الذي لا تفقه منه الطغمة الغاشمة شيئا.

دون التبرؤ من إخواني في هذه المأساة، الذين أداروا ظهورهم أو الذين يأملون في الحصول على اعتذار ملموس، أو حتى الذين مسحوا الماضي أو أولئك الذين أصبحوا يكنون مشاعر حب لجنرال عجوز صاحب ماضٍ إجرامي، والبعض الآخر الذي التحق بمحض غريزة قبليّة بعصابات العسكر، فإنني أتوجه لهم قائلا وبشكل واضح وصريح: أنا لم أعترف في أي وقت كان أنه قد تم سجني دون وجه حق لأنني لم أتخلى عن قناعاتي كرجل أنتمى إلى قبيلة متمردة تعاهد أفرادها على الموت وسلاحهم بين أيديهم لنصرة الحق بما في ذلك الدفاع عن العرض والشرف والمال، فهذا موجود في موروثي وهو شيء لا يمكن محوه أو تغييره.

فعلى الرغم من عدم تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ولا نلجأ سوى لما يساعدنا من الأحكام الوضعية، فهل هذا يعطي الحق لمجموعة من الأوغاد لتسلبنا حياتنا وحريتنا وأملاكنا وبناتنا ونساءنا!؟

لا أكتب هذه الكلمات لأهين الأشرار لأنهم قد وُلدوا حثالةً، ولا أبحث كذلك عن إعلاء قدر الأخيار لأنهم من سلالة نبيلة لأن الأكيد هو أننا جميعا من

خلق الرحمن وفي يوم قريب سيأتي وقت الحساب ليظل الأخيار في أعلى المراتب خالدين فيها.

خلال أحد الاستجوابات صرخ في وجهي أحد من جلادي بن عكنون وطاغارين: «كل يوم يموت رجالنا مقابل راتب ودون أي قناعة أخرى، وأنتم تموتون لأجل قناعة تظنون أنها صائبة».

كنت أعلم أنه يقول الحقيقة وذلك كان يواسيني، ففوق تلك الطاولة التي أُزهقت بها أرواح المئات من الجزائريين أحسست لحظتها بنوع لا يمكن تفسيره من الخلاص والراحة وصفه ربنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾(سورة النمل، الآية: 14).

لا أكتب لأولئك الذين يظنون أنفسهم ملمّين بكل شيء، أولئك الذين يستخدمون حججا واهية متعددة الاستخدامات مثل: «كل شيء موثق» وهي عبارة تعز على عبد القادر ذهبي وأحمد شريف، ولا لأولئك الذين كانوا عناصر نشطة أو خاملة، أو الذين شاركوا من قريب أو من بعيد، وبالخصوص لا أكتب للسجناء السابقين ذوي الأصابع الزرقاء.

أنا أتوجه إلى تلك الشريحة من الجزائريين الذين يريدون بصدق سماع قصة رجل كافح وجرب، شاهد وسمع، عاش وذاق كل أصناف المعاناة والوحشية الجسدية والنفسية والاعتداءات الجنسية على يد الآلاف من الملعونين الذين أنجبتهم لسوء الحظ بلادنا الجزائر.

انتباه الناس إلى المهانة والقهر الذي عاشوه خلال سنوات احتجازهم إذا لم يتمكنوا من التحرر بصوت عالٍ من كل الفظائع والقذارات التي عانوا منها.

في الختام أقترح أن يرد أحدهم ويجيب ذلك الضابط البائس من عملاء عبلة (عنتر سابقا) الذي جاءنا في ليلة الرابع والعشرين من كانون الأول 1992 وهو في حالة ثمالة مزرية ليعترف بكل حزن وأسى بحقيقة هي أكثر إيلاما مما نحن عليه، لأنها تذكرني بشباب مجهولي النسب أو غير الشرعيين، حيث اعترف بأنه وزملاءه قد تمت تربيتهم وتدريبهم لهدف وحيد وهو حماية النظام الذي أنشأهم وتفويض حماية الشعب والوطن للجيش الوطني.

بكل صراحة لم أستطع تصديق ما سمعته، فكلماته كانت تأكد الحقائق التي كانت تعاش في عرين الشياطين وهو فيلا مخصصة لهؤلاء الشباب مجهولي النسب أو بدون عائلات والذين سأتطرق إليهم بإسهاب في فصل آخر من هذا الكتاب.

رواية لن تحمل في طياتها كل ملامح العشرية الدموية والرحلة الجهنمية بشكل شامل ومفصل لفترة التسعينات، بل ستتطرق لمواضيع ذات محتوى يعتقد القارئ الجزائري بمبادئه المتوارثة أنها قد زالت منذ رحيل الجيش الاستعماري، لكن ذلك غير صحيح بتاتا وللأسف يا ابن بلدي العزيز، فالمشاهد البشعة والمروعة التي لا يمكن تحملها ستنقلنا دون استخدام آلة للزمن نحو همجية عصور ما قبل التاريخ البعيدة.

في الواقع لم يكن من المعقول أن يحدث كل ذلك العار والوحشية التي لا تُعد ولا تحصى في مراكز التعذيب العسكرية بالجزائر لولا تواطؤ الأحزاب السياسية وبعض الشخصيات بما في ذلك قادة حزب التجمع من أجل الثقافة والديمقراطية RCD وحركة مجتمع السلم وحركة النهضة... فالكثير من رجال التشكيلات السياسية وخارجها وقعوا في فخ الطغمة العسكرية بالموافقة على المشاركة في حكومات القمع بدافع الخوف أو القناعة.

هؤلاء الرجال قد أدانوا أنفسهم بأنفسهم لذلك لا حاجه لذكر أسمائهم، والبعض الآخر تم سحقهم من قبل النظام الذي ساهموا في وضعه وهنا أشير بالخصوص إلى الراحل رئيس حركة حمس الذي كان الأول على قائمة المرشحين لقيادة الجبهة الإسلامية للإنقاذ بعد ساعتين من فكرة إنشاء تشكيل سياسي يضم جميع تيارات الحركات الإسلامية، وأنا أتكلم عن دراية لأنني كنت حاضرا حين ولدت فكرة إنشاء حزب سياسي إسلامي.

ما سوف أرويه هو مجموعة من الحقائق والأحداث التي عاشها ورواها معتقلون سابقون إبان فترة الجحيم آملين أن يكون هناك على الأقل شهود يلفتون

الفصل الأول:

أسطورة مديرية الاستعلامات والأمن

لطالما كنّا مفتونين بما يسمى الأمن العسكري أو المخابرات باعتبارنا أمة سيادية، فقد كان هذا الموضوع مذهلا للجميع مما سمح بنسج العديد من الأساطير حوله، غير أنها أساطير تخفي حقائق مرعبة تفوق استيعابنا فكرَست نَفسي دون تردد خلال شهر رمضان الكريم لأوثق وأدوِن في كتاب أمثلة عن جرائم تم ارتكابها سنة 1992 على يد رجال الأمن العسكري التي كانت مهمتهم الأساسية هي جعل الجزائر جحيما للجزائريين.

أنا أشعر بارتياح كبير وأنا آخذ هذا القرار لكتابة بضع صفحات أتمنى أن تساهم في إماطة جزء من اللثام عن أسطورة تم حياكتها حول القدرات الخارقة لمصالح الأمن الجزائري بما في ذلك الاستعلامات المعروفة لدينا باسم المخابرات.

تم إنشاء وزارة التسليح والعلاقات العامة خلال ثورة التحرير وجندت قتلة كان دورهم آنذاك التصفية الجسدية لشخصيات قيادية مستهدفة، أما خلفاءهم في بن عكنون ومصالحها التابعة والتي تتمتع بالحصانة المطلقة فيقومون بعمليات

تصفية أفراد وجماعات وإبادة قرى بكاملها دون التفريق بين رجل وامرأة أو طفل.

وبما أننا نعرف إلى ما تعود أصول أغلب مجندي عرين المخابرات، كما سنراه لاحقا، فإن ذلك لا يستثني وجود عوامل وراثية وتأثيرات المحيط التي تدفع إلى استبدال استخدام الذكاء، مثلما يفعل نظراؤهم الغربيين، باستخدام مبدأ الترهيب والترغيب (سياسة العصا والجزرة) ضد شعوبهم وبالتالي يكرسون تكوينهم الحقيقي كعملاء مدربين ويسجلونه بدماء ضحاياهم بممارسة الرقابة والقمع بأقصى وأبشع الأشكال.

تقع بلدة مسقط رأسي على أطراف منطقة القبائل البحرية، وأراد خالق الكون أن تتربع قريتنا قمة الجبل لتطل بكل شموخ على البحر وعلى المنحدرات الوعرة والطرق الملتوية التي تمتد على سفوح الجبال مما سمح للقرية بأكملها برجالها ونسائها أن تساهم في الحرب التحريرية الوطنية في الأول من تشرين الثاني من نفس السنة.

لقد عشت سنوات طويلة وأنا أواجه معضلة عويصة وهي كتابه هذه المذكرات حول الأحداث التي تلت كذبة القرن التي حاكها من يصفون أنفسهم بحماة الجمهورية في 11 يناير 1992. في ذلك اليوم الذي تم فيه الإلغاء التعسفي لأول انتخابات حرة في الجزائر المستقلة حيث ارتدى عسكر الجزائر بدلة الذل التي وصمتهم بالعار إلى الأبد.

أنا إنسان نشأ في طبقة اجتماعية متواضعة، ذو قلب رهيف الإحساس ودموع سهلة الجريان لكنني أتميز بطبع عنيد متمرد ينفر العنف الأعمى غير المبرر، لذلك

يعتبر الفوز عندي كتحدي أقدم من خلاله نص مناسب للقارئ بمفردات لائقة تكون مثابة عمل جبار خاصة المجهودات التي بذلتها لأروي أحداث لا علاقة لها بالاحترام مستخدما تعابير محترمة، أفعال منحطة ومهينة حدثت تحت الأعين الراضية لضباط القيادة العسكرية العليا مثل ما قام به عباس غزيل بشكل مقرف وهو يتبول على الجسد العاري الغائب عن الوعي لأحد المعتقلين الذي تم رُمي تحت قدميه أمام المعتقلين وجلاديهم. ذلك الشاب الجزائري كان قد بقي ساعات طويلة واقفا عاريا في برد ليل فصل الشتاء، ثم أكملوا فعلتهم الشنعاء برشه بالماء المثلج والركلات إلى الرأس والصدر؛ فتكالب عليه أولئك الحثالة إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة.

بعد تراجعي عن كتابة نسخة من الحقائق المليئة بالحقد الدفين وحب الانتقام بأسلوبي المعتاد سأحاول أن أكون صادقا ومخلصا إلى أقصى الحدود حتى ولو كان الأمر حساسا جدا خاصة في مواجهة رفض العائلات والأصدقاء الذين مستهم هذه المأساة التي لطخت صورة الجيش الجزائري كما هو حال الرفاق الذين يرفضون ذكر أسمائهم لأسباب أتفهمها تماما. ليس ذلك بالأمر المهم لأنني أعتقد أنه يحق لي بصفتي طرفا وشاهدا عاش الأحداث بحذافيرها ابلاغ القراء بوجود تعذيب ممنهج في جميع هياكل المخابرات الجزائرية.

لن أطرح لكم خيالا وهميا على هذه الأوراق البيضاء بل سأسرد لكم كل الحقائق والأحداث بأدق التفاصيل لتكون قصة موسومة بختم الصدق ملتحفة رداء المصداقية.

سأنقل للقارئ جميع الأحداث دون تحريف أو استغلال أو حياد عن الحقيقة ففي الواقع يسمح لي ذكر الأماكن أما التواريخ فستكون بشكل تقريبي دون ذكر هوية وأسماء الضحايا وهو ما يتوجب علي احترامه.

ما سأتطرق إليه في هذه المذكرات المتواضعة هو حقيقتي الشخصية وليست لأحد آخر والتي أتمنى أن تكون منارة يهتدي بها شباب الحراك اليوم وهم شباب عاشوا مراهقتهم في أواخر سنوات عربدة الجنرالات ولسوء حظهم لا يعرفون سوى نسخة واحدة للحقيقة وهي تلك النسخة التي تنشرها الصحافة المأمورة أو الصحافة الاستئصالية وإشاعات أبواق الدعاية.

لا أحاول حتى التفكير في مخاطبة كبار السن الذين سكنوا أروقة حزب جبهة التحرير الوطني منذ الاستقلال وشغلوا مناصب هامشية في الرئاسة ينحنون فيها انحناءة الرضوخ ويتجرؤون وبدون خجل على التأكيد بأن أعمال العنف الإرهابية تم الاعتراف بها وتوثيقها وتحديد هويات أصحابها.

سأنقل للقارئ تجربتي الشخصية مع الاختطاف والاحتجاز في مركز عبلة (عنتر سابقا) وفترة ايداعي سجن بربروس وتوقيفي في سجن لامباز وإقامتي كسجين غير مرئي في سجن الشلف المسمى سجن الخوف في درجات برودة بلغت تحت الصفر، أين كان الحراس مغروس وبن ثابت وزنقة يبحثون عني عند كل موعد زيارة لكن دون جدوى، لكنني سأتخطى طواعية سلسلة انتقالاتي القصيرة من سجن إلى آخر لحضور جلسات مواجهة حتى أحافظ على سلامة وحياة بعض الأشخاص.

الفروع الثلاثة المتوارثة عن وزارة التسليح والعلاقات العامة وهي: المديرية المركزية للأمن الداخلي والمديرية المركزية للأمن الخارجي والمديرية المركزية للأمن العسكري تعتبر المسؤول المباشر عن المأساة التي مست ربع مليون جزائري حسب الإحصائيات التي أعلنها رئيس حكومتهم آنذاك أحمد أويحيى، لكن التاريخ سيكشف حتما إلى أي مدى هو رقم بعيد عن العدد الحقيقي للضحايا الأبرياء.

الكثير من التواريخ بقيت حية في ذاكرتي منذ السنوات الأولى للانقلاب لكن الكثير من الأحزان والدموع قد فقدت حرقتها وتم نسيان الكثير من الأحداث المهمة التي شهدناها، لذلك وحتى لا أكون مملا أدفع إلى الضجر أحاول أن أجمع المحطات التي أراها مهمة ولابد من الاطلاع عليها وتقديمها للرأي العام.

الفصل الثاني:

عرين الشياطين

بعد اندلاع الثورة التحريرية -آه كم أحب هذه الجملة- عاد أبي من فرنسا ليستقر عند أقاربه بالعاصمة، حيث كان أخوه الأصغر وأعمامه وثلاثة من أبناء عمومته قد التحقوا بجبهات القتال فتم تكليف والدي مع جدتي بالقيام بمهمات متنوعة لوجيستيكية ومالية مع الاهتمام بالمراسلات التي يذكرني نظامها بذلك الذي وضعته الجماعة الإسلامية المسلحة قبل توقيف قادة الجبهة الإسلامية للإنقاذ بفترة طويلة.

في تشرين الثاني من سنه 1957 كنا نسكن بالقرب من الفصيلة الإدارية المتخصصة الفرنسية في حي لابروفال بالقبة، وفي إحدى الأمسيات في حدود التاسعة ليلا قام أحد الجزائريين الملثمين بجلب كتيبة من الجنود الفرنسيين إلى منزلنا مباشرة.

تم توقيف والدي الذي كان في المنزل حينها بشكل تعسفي وتم تجريده من الملابس ورميه على الأرض تحت المطر في الوقت الذي كان فيه جنود آخرون يحفرون أرض المنزل بالمعول والمجرف بحثا عن أسلحة يفترض أنها مدفونة هناك.

بعد أن فشلوا في إيجاد أي شيء بدأوا في تعنيف والدي وهو ملقى على الأرض، لم يتعد سني حينها ثلاث سنوات فتأثرت بالمشهد وانفجرت بالبكاء وبدأت بالصراخ بكل ما أوتيت من قوة، فأمر ضابط شاب الجنود بأخذ والدي معهم على الفور ثم أخذني من يد أمي وأعطاني ثلاثة ألواح من الشوكولاطة فتوقفت عن البكاء وكان أبي قد توارى عن الأنظار، بعد مغادرتهم لاحظت والدتي أنه لم يتم سرقة أي غرض من الأغراض ولا حتى إفساد مؤونة المنزل، وبعد أسبوع تم السماح لنا بزيارة والدي في مركز الاعتقال الذي كان يتواجد في بئر طرارية بالجزائر العاصمة.

بعد الاستقلال، ترعرعت في الكثير من الأحياء ببلدية القبة لكن المكان الوحيد الذي كان يلفت فضولي على وجه الخصوص كان منزلا كبيرا تابعا للدولة وبالتحديد لوزارة الدفاع الوطني، حيث أن عائلة مكونة من زوجين كبيرين في السن مع ابن في السابعة عشر من عمره كانت تسكن أحد أجنحته. كان الولد المدعو **عبد الرزاق د.** في نفس عمري يقدم أباه على أنه ضابط في الأمن العسكري.

ذلك المنزل هو ما سأسميه عرين المخابرات، حين يقع نظرك عليها تحسبها أحد ديكورات رواية فرانكنشتاين بجدرانها المهترئة وواجهتها المغطاة المكسوة بنباتات متسلقة من جميع الأصناف تصل إلى نوافذ الطابق الأول مما يؤكد عدم حصولها على أي ترميم أو صيانة منذ مغادرة الجنود الفرنسيين لها.

بين سنتي 1971/1970 كنت أقف أمام الفيلا الغامضة لأتتبع تلك الحركة الكثيفة ليلا ونهارا: سيارات تذهب وأخرى تأتي لأن روادها كانوا دائما يأتون على متن واحدة، لأشاهد شبابا عزب دون الخامسة والعشرين يلجونها طوال

اليوم، وجوههم حزينة عابسة تعلوها تكشيرة بدل الابتسامة، لكنني لم أتخيل يوما أن هؤلاء هم من سيصبحون في المستقبل منتشرين على كامل التراب الوطني كجلادين ومرتكبي جرائم تعذيب واضطهاد بل كنت أتساءل لسنوات عدة عن ما يدور داخل تلك الفيلا؟

اعترف لي **عبد الرزاق د.** الذي أصبح صديقا لي بعد حصوله على البكالوريا أن والده يضغط عليه حتى يلتحق بالطيران العسكري ويبعده عن اختياره للأمن العسكري بعد حصوله على التقاعد، كما أسرّ لي أن والده كان يبغض أعمالهم القذرة وأنه لا يتمنى أن يرى ابنه يختار تلك الحياة ويتشرب من الجبن والبغض الذي يتميز به المجندون تحت مسؤوليته من مجهولي النسب.

في تلك الفترة لم تكن التجاوزات تمس الناس البسطاء بل كانت تلمس حياة الطبقة السياسية والأئمة والمعارضين بما في ذلك أقرباءهم وأفراد عائلاتهم. فقد مرت بمحاذاتي العديد من الشخصيات المعروفة مثل فرحات عباس، محمد السعيد، الإخوة علي وسعيد رحال حيث شهدت تلك الفيلا الكئيبة على سوء المعاملة والإهانة التي تعرضوا لها.

في نهاية الأمر يتضح أن هؤلاء هم الرجال الذين شكلوا الشرطة السياسية لمصالح المخابرات الجزائرية أي أنهم اللبنة الأساسية لمديرية الاستعلامات والأمن في سنة 1992.

في مركز عبلة (عنتر سابقا) وفي جميع المراكز الوطنية الأخرى التابعة له قام رجال خريجون من مخافر عرين الشياطين بالتعاهد على إبادة الإسلاميين بعد انقلاب 1992، فهؤلاء هم بالتحديد ما يمكننا تسميته بمنظمة إرهابية والتي خرج

غالبية الشعب اليوم للتنديد بها بطريقة شرعية وهم من كانوا وراء الاغتيالات واختفاء أبناء هذا الشعب في فترة العشرية السوداء، ولا يزالون على نفس النهج في أيام هذا الحراك باستخدام طرق التصفية الجسدية ضد المتظاهرين الشباب.

وبالنظر للوعي السائد بين أفراد شعبنا اليوم فإن أبناء عرين الشياطين وقائدهم رئيس أركان الجيش هم أهم رموز البربرية العسكرية في ذاكرتنا الجماعية بما اقترفوه من جرائم وإبادات في جميع المدن الجزائرية.

بعد مرور ثلاثين سنة عن الجرائم المرتكبة في مراكز التعذيب المخصصة لمحو أي معارضة للنظام العسكري حان وقت سرد الأحداث والحقائق بكل تفاصيلها لترسم صورتها في الأذهان وتحفر في الذاكرة، لذلك يتوجب ذكر اسم الجلاد ومركز التعذيب والسجن، حيث ذاق الكثيرون ألوانا كثيرة من اللآلام والمعاناة.

للتذكير مرة أخرى بأنني أحد الناجين الذين لا يزالون على قيد الحياة من بين عدد كبير من الذين استطاعوا الصمود تلك السنوات المرعبة وأستسمح نفسي في أن أكون أول من يخط ويروي الحقائق التي أتمنى أن تشجع وتدفع باقي ضحايا العشرية السوداء للقيام بالمثل.

الفصل الثالث:

عملية اعتقالي

في يوم الجمعة الثامن عشر من شهر كانون الأول من سنة 1992 كنت في سريري على الحادية عشر ليلا غير مبال تماما كما كان والدي، فجأة سمعت والدتي أصوات غريبة عند عتبة الباب كأنها أصوات تحريك لأسلحة النارية فجاءت لتحذيري بأن أفراد من العسكر على وشك طرق الباب، بعد بضع ثواني كنت متأهبا وبعد الطرقة الأولى فتحت الباب على مصراعيه ليقابلني رجل ضخم ملثم مشيرا علي بأصبعه قائلا: «نعم، إنه هو».

وإذا بضربة رشاش تنهال بقوة على جبهتي وضربة أخرى على رأس ابني البالغ من العمر آنذاك سبع سنوات والذي انزلق بين قدمي ليفر هاربا، ثم قاموا بجري من ياقة قميصي إلى سيارة النينجا ثم انهالوا علي بضربات السلاح والركلات ليرموني بعدها ووجهي مخضب بالدماء ويداي مكبلتين وراء الظهر في مؤخرة سيارة رباعية الدفع التي انطلقت باتجاه رويسو (العناصر الآن). حينها استرجعت ذكرياتي ولاحظت وجه الشبه مع طريقة اعتقال والدي سنة 1957 على يد

عساكر فرنسا غير أن الفرق الوحيد والشاسع بين العمليتين أن ولدي تعرض لضربة بالرشاش على الرأس عوضَ قطع الشوكولاطة، يا لحسرتي وأنا أرى جنديا جزائريا يضرب بسلاحه طفلا بريئا هو حفيد عائلة ثورية، لقد رمقته بنظرات كلها كره وحقد في حين كنت أتعرض للتعنيف على يد زملائه.

لم أشك أبدا أنه يمكن لذلك الطقم الذي ارتديته مرة ضمن ذلك الجيش من بدلة وحذاء وكلاشينكوف أن يفقد مرجعيته وهيبته وحتى قيمته المعنوية كليا، فالجنود أصبحوا عبارة عن حيوانات متشردة لا تثير الشفقة بل تثير الاشمئزاز بوساختها ووحشيتها.

علمت في وقت لاحق أن أكثر من خمسين سيارة من مختلف مصالح محاربة الإرهاب بما في ذلك مصالح عسكرية، قوات خاصة، قوات الدرك والشرطة قد التحقت بالعملية على أساس أنها عملية القضاء على خمس وعشرون مترشحا محتملا للخروج عن القانون أو الالتحاق بمعاقل التنظيم.

السيارة الأولى من القافلة كانت متواجدة على مستوى التقاء شارع المعدومين بشارع واد كنيس أما آخر واحدة فكانت على مستوى عيادة سانت أنطوان، شارع محمد رابية بالقبة بما يعني أن كيلومترا واحدا على الأكثر كان يفصل سيارة بداية القافلة عن آخر واحدة.

ما حدث في منزلي خلال عملية اعتقالي هو سرقة مبلغ مالي مقدر بـ 8000 دج ووثائق ملكية شقة قيد الاقتناء ومفاتيح سيارة والغريب في الأمر أن السيارة بقيت مركونة في مكانها طوال اليوم ولم تختف سوى في الليلة الموالية مما يدل على أنه عمل منعزل لعميل سري فقدَ توازنه تحت تأثير المهلوسات.

حوالي الساعة الثالثة صباحا انتهت عملية الاختطاف عند منزل بأعالي تيليملي فاتجه الحشد إلى عرين الضباع بمركز عبلة (عنتر سابقا) وخلال الطريق انفصلت العديد من السيارات المدججة بالرجال المسلحين لتعود كل واحدة لثكنتها.

السيارات التي دخلت لثكنة بن عكنون أين كان تتواجد وحوش بشرية في انتظار وصول اللحم النيئ والدم الطازج، لم تكن سوى سيارات توصيل قامت بمهمة تسليم للسلع فقط.

كانت الأصفاد حول معصميّ ووشاح أسود يلف أعيني ومسدس كبير موجه إلى رأسي حين تم اقتيادي بقوة وإرغامي على صعود الأدراج المؤدية لمكتب الاستجواب.

تم دفعي بعنف داخل غرفة كبيرة فتناهى لمسامعي صوت بشري لأحد الضباط الذي كان يوجهني نحو مكتبه بوابل من الشتائم لاستكمال ورقة المعلومات وملء معطيات المطابقة وإقرار باستلام المنتج. يتم الأمر بسرعة فائقة فور تفوهك بالأجوبة!

لقد تلقيت تعليمات صارمة بعدم رفع الوشاح عن عيني تحت أي ظرف من الظروف، وإلا سأخاطر بفقدان حياتي في وقت أقرب مما كنت أتمناه فانصعت طواعية، و لم يستغرق الأمر إلا بضع ثوان لأجد نفسي في الطوابق الأرضية التي سبقتها شهرتها السيئة.

بمجرد أن لامست الأرضية شديدة البرودة، التفت بشكل غريزي لأنظر من فوق كتفي فشعرت بالموت يتسلل عبر ثقوب المفاتيح لينقض على أحد تلك الأجساد المستلقية لاستغلال فترة وجيزة من الراحة.

قبل أن أضع عيني على كل تلك الخرق البشرية المتكئة على الحائط، أخذت نفسًا عميقًا تبعه تطهير عاطفي عميق حيث بدأت بالبكاء بصوت عالٍ.

الفصل الرابع:

جلسات التعذيب

قبل الشروع في هذا الفصل أظن أنه لا بد من التذكير بما قاله الجنرال جاك ماسو نظرا للتشابه الكبير بين الحربين التي تم خوضها ضد الشعب الجزائري حيث قال: «مبدأ التعذيب كان مقبولا؛ على الرغم من أنه عمل مشين تم التغطية عليه بل والأمر به من طرف السلطات المدنية التي كانت على دراية تامة». «لقد قلت واعترفت بأن التعذيب كان منتشرا في الجزائر [...]. كان يجب علينا أن نفعل خلاف ذلك، هذا ما أفكر فيه. لكن كيف وماذا؟ لا أعرف. كان من الضروري السعي في محاولة لإيجاد طريقة أخرى. للأسف لم ننجح، لا سالان، ولا آلارد، ولا أنا، ولا أحد».

هذا يدل على أن جنرالات الجيش الوطني الشعبي لم يخترعوا شيئا جديدا بل اتبعوا فقط خطى أسيادهم.

الجلسة الأولى:

بعد أن استرجعت بعضا من قواي رفعت رأسي وحررت بصري. بمجرد ان تعودت على الضوء، بدأت تظهر لي مجموعة مكونة من خمسين رجلا ضعاف البنية من الجوع والبرد والخوف والرعب. انتابني خوف وهلع كبيرين فلقد كانوا يشبهون رجال الكهوف ذوي اللحية بملابسهم المتسخة وشعرهم الكثيف. خالجتني فكرة جنونية: هل يا ترى كان محكومًا علينا أن نموت بهذه الطريقة؟ رفعت رأسي مرة ثانية وتمعنت في تلك الوجوه التي تمر أمام ناظري. تعرفت أخيرا على صديق لي، ثم اثنين ثم ثلاثة وأخيرا فهمت أن المجموعة كلها هنا ممن اتهموهم بتفجير مطار الجزائر والذين تم توقيفهم الأسبوع الماضي.

في صبيحة اليوم الموالي الأحد 20 كانون الأول 1992، حوالي الساعة الثامنة صباحا، أخبرني زميل يقبع على يميني أن الاستجوابات العنيفة قد استأنفت فقد كان يومي الأول لدى الجلادين المترعرعين في دور الأيتام.

كان عدد المطلوبين سبعة وكنا ثلاثة وافدين جدد في تلك القاعة الباردة فتم استكمال العدد، بما أن نشاط عملاء المركز قد عاد في الطابق العلوي فهذا يعني قرب بداية جلسات التعذيب.

لم يطل انتظارنا كثيرا حتى اقترب أحد الزبانية من الباب الحديدي الثقيل، استغرق بعض الوقت ليزيل القفل والسلسلة الثقيلة ثم دخل متبوعا بزميل له ممسكا بقطعة ورقية، فتحت البوابة فقمنا بإعادة غطاء الأعين إلى مكانه على الفور قبل ولوج أول واحد منهم، تم استدعاء اسمين هما محمد. ب من القبة والثاني أحد

الإخوة من مفتاح يدعى سالم والذي يبدو عليه أنه أقام في مركز عبلة لفترة طويلة، بدا لي أن وجه الشاب وهو الجزء الوحيد المرئي من الرجل قد تقدم في السن بسبب التعذيب، ولم يكن لديه سوى عظام تحت جلده، ولحيته كانت طويلة، لم يكن يرتدي ملابسا سوى قشابية شتوية بنية كانت مقرفة بشكل لا يصدق.

توجه الرجلان نحو المخرج وهما لا يبصران شيئا، أمسكهما العسكريان من رقبتهما مثل الأغنام دون رحمة ليأخذوهما إلى غرفة مجهزة بشتى أدوات التعذيب تذكّرنا بالمتحف الذي تُعرض فيه ما كان مستخدمًا سابقًا في أوشفيتز.

بعد ساعتين، تم استدعاء جمال ب. نهض الشاب الأربعيني بصعوبة كبيرة وذلك نتيجة واضحة للجلسات السابقة، صرخ الجلاد الواقف على الباب عليه كحيوان شرس لكن لم يحاول أي أحد مساعدته على الوقوف لأن الخوف والرعب قد تملكا الأجساد والقلوب والأرواح.

خرج الرجل المسكين من عتبة الباب بخطى غير ثابتة فقبض عليه جلادان ملثمين لجرّه على طول سلالم عمودية تقريبا، في وقت لاحق علمت أنه تم أخذه لمواجهة أخيه في ما يخص مسألة مشتركة بيننا كذلك وهي اختفاء كمية من ثلاثي نيتروتولوين قبل عملية تفتيش منزل المعنيان بالأمر.

بعد أقل من نصف ساعة، تم قذف الرجل من رجليه وذراعيه في وسط القاعة على البلاط القاسي وهو فاقد للوعي مخضب الوجه بالدماء لكن لم يحرك أحد ساكنا فكما يقول المثل الشعبي: «الخوف يجري الشيوخة»؛ «الخوف يدفع بالشيخ المسن للجري».

بعد وهلة صغيرة من الذهول زحف أحدهم نحو الجسد الغائب عن الوعي لسحبه ببطء وحذر نحو الجدار، كانت ملابسه مبللة فقد تناوب وهو مربوط على طاولة التعذيب بين قطعة القماش المبللة والصعق بالكهرباء مرة بعد مرة، وبما أنه كان فقد الوعي بسهولة فقد اعتبروا أنه من الحيطة حفظه لجلسات قادمة.

كان المسمى تاجار شاب من بوفاريك تم اعتقاله بالخطأ في الشارع خلال إحدى الحملات البوليسية، اقترب الشاب من الجسم المتكئ على الحائط ببطء وأخرج قطعة شوكولاطة أمباسادور من جيبه ليضعها في فم جمال ب.

كان الوقت يمر و لم يظهر أي أثر عن الأخ محمد ب. أما بالنسبة للأخ سالم من مفتاح فلم يعد أبدا إلى الطابق الأرضي ولقد علمنا حين كنا في سجن لامبيز أن عائلته لم تره منذ اعتقاله بمنزله على يد القوات الخاصة.

بعد لحظات انطلق صوت جرس لكن لا أحد أبه لذلك ما عداي لأنني كنت معتادا على النشاط البدني وفي حالة تأهب دائم، لقد كان جرس مطعم عملاء المركز فقد كان وقت الغداء.

لقد كنا منذ الثامنة صباحا في حالة تأهب قصوى إلى أن قرع ذلك الجرس الذي يدعو الزبانية إلى الطعام، حينها ظهر بعض الارتياح على الوجوه. اعتدت على ذلك بسرعة كبيرة فوقت الاستراحة يأتي حين يذهب الوحوش لحشو بطونهم أو إفراغها.

حوالي الساعة الثانية ظهرا انتهت جلسة التعذيب فتم جلب محمد ب. ورميه بعنف وكأنه قطعة قمامة وهو الذي كان أحد المهندسين الذين درسوا في الجهة

الثانية من البحر المتوسط. لم يكن باديا عليه آثار تعنيف كبيرة لأنه بقي مربوطا على طاولة اسمنتية لوقت طويل في انتظار مواجهة أخيه تم تحريره بعد الحصول على اعترافات وأخذه للتعرف على بعض الأماكن.

لابد من الإشارة هنا أنه في أغلب الأحيان كان يتم استدعاؤنا للتعرف على أشخاص سواء أحياء أو أموات خارج مركز عبلة، أو للتعرف على رأس مقطوعة حديثا بالسلاح الأبيض، كما حدث معي وسأتطرق لذلك بوضوح في فصول قادمة.

إن عملية التعرف على الأماكن حين يكون العنصر اللازم القضاء عليه يعتبر خطيرا ومدربا عسكريا على قتال الشوارع تعتبر ضرورية جدا بالنسبة لعملاء عبلة، وهي عبارة عن زيارة للحي والسير في الأزقة بسرية تامة دون أن يعرفهم أحد، كما لا ينبغي أن ننسى أننا في السنوات التي سبقت الشعار الجبان لأبغض رجل في أرض الشهداء، رضا مالك، الذي قال ذات مرة: «الخوف يجب أن يغير المعسكر». لقد أعطى في الواقع الضوء الأخضر لتصعيد عمليات الاختفاء وتجنب الاشتباكات المباشرة مع «الإرهابيين المسلحين» واستهداف عائلاتهم وأحبائهم.

وصل الأخ محمد ب. منهكًا زاحفا على بطنه وبقي على الأرض لبضع دقائق قبل النهوض وطمأنة الجميع. كان أكبرنا سنا، في الخمسينيات من عمره على ما أعتقد، كان وجهه متورما لكنه لا يزال قادرًا على إصدار ابتسامة، بدأ يستعرض ببطء كفيه ويديه ليخبرنا أن اليوم كان يومًا جيدًا بالنسبة له. الأيدي كانت ملطخة بالدماء وممزقة بالجراح تمامًا بسبب مئات ضربات الهراوات المطاطية.

ما كان ملاحظا هو أنه بعد الساعة الثالثة زوالا لا يتم استدعاء أحد إلى الجحيم لكن زيارات النازيين «لليهود» لا تتوقف حتى حوالي الساعة السادسة مساءً،

عموما كان يوما جيدا على أية حال حين يكون لديك من طيبة القلب ما يواجه سوء الحظ.

حوالي الساعة الثامنة مساء، فتح مدني ملثم البوابة بلطف دون إحداث ضوضاء كبيرة، توجه نحو ذلك التاجر الشاب من بوفاريك وهمس له ببضع كلمات ثم غادر على رؤوس أصابع. بعد وقت قصير ودون تأخير كبير عاد محملا بعلب البسكويت بيمو ولوحات الشوكولاطة أومباسادور. أؤكد هنا أن هؤلاء المجرمين في مركز عبلة (عنتر سابقًا) لا يهتمون كثيرًا بمشاكل سوء التغذية لدى المعتقلين. ففي كل يوم وقت الغداء، يتم خلط فتات الخبز المتبقية مع بقايا طعامهم، والتي عادة ما يتم وضعها في سلة المهملات، ليقوموا بتوزيعها على محتجزي الطوابق السفلية والزنزانات المختلفة.

الجلسة الثانية:

يوم الاثنين 21 كانون الأول 1992 وكما يحدث يوميا يعود النشاط والحركة اليومية بنفس الوتيرة المسطرة كورقة الصولفاج، في ذلك اليوم لم يقتصر صوت الضوضاء على الطوابق العلوية فوق رؤوسنا بل اقتربت كثيرا من البوابة والسلالم المؤدية إلى غرف الموت مما يعني أن التعذيب كان يتم في أكثر من مكان وأن رقعة استخدامه قد اتسعت.

على الساعة الثامنة ونصف تم استدعائي للطابق العلوي حيث تم عزلي في زنزانة ضيقة في وسطها مرحاض تركي بداخلها أخ مصاب برصاصة كان يطوي نفسه لإخفاء جرحه ومكان إصابته. كان الجرح في فخذه تفوح منه رائحة نتنة

لكنه كان يعرف أنه هالك لا محالة بما أنهم أخبروه بأنهم لن يعالجوا الجرح الذي كان ينخر فخذه وسيرمى بعدها للكلاب.

استسلمت لضعفي الطبيعي و لم أستطع أن أبقى مكتوف الأيدي أمام ظلم الهمجيين، طرحت عليه سؤالين أو ثلاث فرفض الإجابة فبكيت عليه وما زلت أبكي بدموع مريرة إلى يومنا هذا.

كانت شعلة الانتقام التي تغذي قلبي كل يوم هي التي ساعدتني على البقاء في ساحة القتال، إنه الواجب والدين الذي أدين به لهؤلاء الضعفاء تعيسي الحظ، لكنهم معززين بالتضحية في سبيل الله الواحد الأحد.

بعد وقت قصير تم نقلي لغرفة تعذيب أخرى لأواجه الشخص الذي اتهمني بحيازة بندقية ذات منظار، بالكاد انتهيت من إنكار التهم حتى أمر كبير الجلادين بإيماءة من رأسه بإعادتي إلى الطابق السفلي.

أمسكني الجلادون الواقفون خلفي من كتفيّ ورجليّ ودفعوني بعيدا باتجاه السلالم المؤدية إلى قاعة الاعتقال، اصطدمت بالدرجات الأولى بقوة كبيرة مما كلفني فقدان اثنتين من أسناني. رفعني الزبانية مرة ثانية وفجأة أرسلاني لأطير في الهواء متوعدين برؤيتي مجددا في اليوم التالي في اختبار حاسم وحاد، لأنه قبل أن يستدير ذاهبا قال لي أحدهم: «إنه دورك غدًا».

في حين أن القلق كان يدمرني من الداخل حول تهمة حيازة سلاح فائق الدقة، كان صاحب التهمة أحمد د. من حسين داي في طريقه للتعرف على رفيق آخر واختطافه في وضح النهار حوالي الساعة الرابعة مساءا في طريق عودته من العمل.

على الساعة السادسة مساء لم يظهر أحمد د. فزاد قلقي أكثر فأكثر، كنت أخشى أن تكون الألسنة قد فكت عقدتها بسهولة وبسرعة كبيرة لذلك توجب أن أكون حذرا وألعب بذكاء. تحملت ألمي بصبر على الرغم من النذير السيئ للوضع الذي يلوح في الأفق فما فتأت أدعو الله لما هو أفضل.

حوالي الساعة التاسعة ليلا جاء مدني آخر ودخل عندنا بهدوء وهو يحمل علبة تدخل طبي تحت ذراعه، توقف أمامي لأنني كنت الرابع على يمين المدخل وسألني:

- منذ متى وأنت مجروح؟ لأنها كانت واضحة على رأسي
- أجبته: منذ أربعة أيام.

فقام بتنظيف الجروح وتعقيمها بيدي ممرض محترف وبكل خفة ووضع ضمادات حولها وهمس لي: «إذا تم استدعاؤك غدا قم بالتخلص من الضمادات أولا». هززت رأسي موافقا فأكمل زيارته للمعتقلين فقدم المساعدة لكل من يحتاجها لعل ذلك يساعده على تحمل مشاهد المعاناة التي يلحقها هو وزملاؤه بالشباب من نفس لحمهم ودمهم. فهل يكفي ذلك لتهدئة ضميره وتلطيف روحه وإعطائه نومًا هادئًا؟ لا أصدق ذلك، من غير الممكن طالما لم تنته المعاناة التي تتراكم أمام عينيه بل على العكس من ذلك فقد بدأت تأخذ أبعادًا مخيفة.

الجلسة الثالثة:

الثلاثاء 22 كانون الأول 1992. في هذه الصبيحة تم اختيار شابين في الخامسة والعشرين من عمرهما يقطنان في فوردلو «برج البحري» للتوجه لغرف الجحيم (gehennem)حوالي التاسعة صباحا.

كان الشابان قد وصلا من بعدي ولم يكن يبدو عليهم الخوف أو الهلع على الإطلاق فقد كانت مواجهتهم الأولى مع الجلادين أولاد الحرام.

للمرة الأولى وصلنا صوت الأنين من الألم والوجع متبوعا بتكبيرة «الله أكبر» التي استطاعت أن تفلت من بين الأبواب التي من المحتمل أن الزبانية تركوها مفتوحة من فرط تعطشهم الفطري لإهانة وإذلال الغير وهو ما يتجاوز العقل عند هؤلاء المتعطشين للدماء، لقد نسوا النوافذ والأبواب لينهالوا على أولئك الشباب للتعبير عن استيائهم وكراهيتهم للمجتمع حتى قبل التحقق من هويتهم أو اتباع الإجراءات المعتادة.

.بمجرد دخول الشابين تم تجريدهم من ملابسهم وبطحهم أرضا وربطهما ظهرا لظهر من الصدر إلى الأرجل .بما يمكن تشبيهه بأحزمة التغليف أو الجرّ، ثم تم وضعهم على الطاولة الإسمنتية وأرجلهم تتدلى منها بعشرة أو عشرين سنتيمترا، دون السؤال عن نشاطهم كمناضلين إسلاميين أو انتماءهم للجماعة المسلحة تهاطلت على أقدامهم عدد لا يعد ولا يحصى من ضربات الفلقة إلى أن فقدا الوعي.

سمعنا تكبيرهم لمدة عشرة دقائق وبعد ساعتين رغم أنني قد فقدت معنى الزمن، تم جلبهم عراة وفاقدين للوعي إلى القاعة، تم تحديد موعد جديد لهما لجلسة لاحقة فقد كانت هذه الجلسة مجرد حصة تعارف وتقديم للرعب والأهوال التي تنتظرنا جميعا.

بالتوازي مع ما حدث مع الشابين من فوردلو (برج البحري) الذين تذكرت أسماءهما الآن وأنا أكتب هذه المذكرات الأليمة: رشيد ونور الدين، وصل ضيف

جديد من مجموعتي يمد القائمة الطويلة التي غرّد بها أحمد د. من حسين داي تحت ذائقة التعذيب طبعا وهو الأخ سعيد ت. من حي الشمس والبحر (مار إي صولاي)، والآن هما الاثنين متواجدين في مكان ما من مركز الجحيم هذا.

مع وصول العم الصغير سعيد ت.، بدأت بالقلق جديًا لأن الأمور بدأت تصبح صعبة ومن المرجح أن تبقينا التداعيات القاتلة مدى الحياة في غرف الموت الجنائزية هذه، بين جدرانها الرهيبة وتحت رحمة المعاملة اللاإنسانية لجلادي الجحيم.

لقد كان الوضع مأساويا! على الأقل بالنسبة لي، ذلك المتمرد الذي يرفض أن يموت في أوقات المجد هذه موتا باردا مثل الموت المخصص للدواب.

بالنظر للعدد الكبير للأشخاص الواجب القضاء عليهم أو توقيفهم تم تهيأت مركز عبلة (عنتر سابقا) بشكل سري وإعادة تقسيمه بأسلوب مروع يمكنه استيعاب كم هائل من القابلين للتعذيب والمعذبين في نفس الوقت وبالتالي توفير مساحة أكبر لإخفاء المزيد من الجثث.

حوالي الساعة السابعة مساءً اهتزت البوابة الحديدية وفتحت بقوة ليظهر رجلان وجههما مغطى بنصف لثام، الرجل القصير وهو العم سعيد ت. الذي ترك تاريخا في الحواجز المزيفة فيما بعد، والأشقر الطويل وهو أحمد د. من حسين داي الذي كان نزيلا معنا منذ فترة في القاعة، لم يكن يظهر عليهما التعرض لتعنيف كبير لأنهما قد أكملا رغما عن إرادتهما مهمة المرشد والمشير.

كان أحمد د. وسعيد ت. أكبر مني سنا لكن الحياة أرادت أن أترعرع معهما بحكم ممارسة كرة القدم لذلك كنت أعرف شخصياتهم ومزاجهم وكان بإمكاني التنبؤ بردود أفعالهم مسبقًا، ومع ذلك عندما التقينا في سجن لاميز لم أخبرهم عن

خطة الهروب التي يتم إعدادها خوفًا من أن تؤدي الثقة المفرطة إلى عرقلة عملية تم التعبُ على إعدادها، تمكن كلاهما من الهروب أخيرًا في 3 مارس 1994، حاول أحمد د.، بسبب مشاكل السمنة ونقص في الرؤية، مغادرة البلاد في الخارج دون جدوى. قُتل في هجوم بطائرة هليكوبتر بنيران رشاش آلي في جبال ولاية جيجل، بينما فضل سعيد ت. الالتحاق بجبهة القتال في الجبال للانتقام ورد الاعتبار من جميع الإهانات والذل الذي تعرض له لمدة أربعة عشر شهرًا.

الجلسة الرابعة:

اليوم هو الأربعاء 20 كانون الأول 1992. في الساعة المعتادة تم استدعاء بوسعادة م. إلى الطابق العلوي، كان يرتعش مثل ورقة شجرة في فصل الخريف، حاول دون جدوى أن يرتب الوشاح فوق عينيه فبدأ الخبيثان المكلفان بجلبه بالصراخ مستخدمين ألفاظا مشينة تليق بعمال الرذيلة ببيت الدعارة «القط الأسود» الذي كان بمدخل القصبة منذ زمن بعيد، كانا اليوم يرتديان بدلات عسكرية ويختبآن بجبنهما وراء لثام الوجه ويتشجعون بفوهات الكلاشينكوف مهددين نفوسا مستضعفة نحيلة مرتعبة من الخوف.

هذا التغيير غير المعتاد في روتينهم له تفسير بالتأكيد، فلقد ظهر لاحقا أن فرعا يسمىّ «اتصال السماد» تم اكتشافه خلال عملية اعتقال بمركز للدرك الوطني بولاية مسيلة وأن بوسعادة م. كان حلقة الوصل بين المجموعتين.

في الجزائر العاصمة، كانت الجماعة الإسلامية المسلحة الأصيلة تحت قيادة محمد علال، المعروف باسم موح ليفييي، وجماعة بوسعادة مع بلقاسم ب. كان مقرها في البيت العائلي القديم ببلدة مسقط الرأس.

في الواقع، كان أحد المجاهدين الأصليين المدعو محمد د. متخصصا في المتفجرات إبان الثورة التحريرية، وقد كان لي شرف لقائه والتعرف عليه في سجن آخر، يعمل في مستودع صغير للتصنيع اليدوي والتموين بالمتفجرات تُصنع من الأسمدة الكيماوية، فهو الذي كان مسؤولاً عن إمداد جميع المجموعات الصغيرة العاملة في وسط الجزائر من خلال بوسعادة وبلقاسم ب. والتي تنشط تحت إمرة هذين الأميرين.

تم القبض على الأمير بوسعادة وبلقاسم ب. في وهران بعدي بأيام قليلة، أدى وصوله إلى مركز التعذيب عبلة (عنتر سابقًا) في بن عكنون إلى تعجيل استجواب وتعذيب بوسعادة م. ولخبط برنامج الأنذال الجبناء الذين ظنوا أنهم أمسكوا مصدرا غنيا بالمعلومات.

سأعود لاحقا لأروي جميع الانتهاكات الجسدية والجنسية التي تعرض لها من وهران إلى بن عكنون لمدة ثلاثة أيام منتقلا من مخفر الشرطة إلى آخر.

فور وصوله، تم عزله في المرحاض -زنزانة- المجاور لمكتب الاستجواب الرئيسي، كانت زيارات كبار الجلادين متواصلة وكأنهم يرون حيوانًا لأول مرة في حديقة الحيوانات، هذا التكتيك كان يؤدي إلى إحباط الأسير عقليا ونفسيًا والذي يكون أصلا على وشك الانهيار.

بعد ساعة أو ساعتين، عاد بوسعادة م. إلينا مرتديًا قميصه فقط، كان جسده العاري من الصرة إلى القدمين مكسوا بضربات شفرة حلاقة بيد خبيرة، حيث لم تكن عميقة جدًا لكنها كافية للنزيف بغزارة. لقد قاموا بتشليح لحمه أمام الأمير بلقاسم ب. لأنه أخوه الرابع بالفعل من أجل انتزاع اعتراف منه على عدد من الجماعات والأهداف.

هذه الوحوش ذات المظهر البشري التي ولدت ونشأت في ثكنات والتي تعاني من اضطرابات نفسية وعاطفية تمارس التعذيب كرياضة ترفيهية وتجرب الأفكار الشريرة على ضحاياها.

تم استخدام شريط مطاطي قوي على شكل حلقة ملفوفة حول أعضائه التناسلية لتعذيب الأخ الأكبر، ليس لانتزاع اعتراف منه ولكن لإقناع شقيقه الأصغر بالتحدث الذي كان مجبرا على مشاهدة المشهد والإجابة لأجل أخيه الذي كان مكمما بممسحة مبللة محشورة إلى أعماق حلقه، مشهد مروّع مشابه سأرويه لاحقا في هذه الرواية.

ما هو السلوك الذي يمكن توقعه من ضحايا عملية إحباط مزدوجة، المحكوم عليهم بوضع دنيء ومذل للأولاد غير الشرعيين داخل المجتمع المدني والمسجلين على أنهم «مولودون من الفخذ الأيسر» في المجتمع العسكري؟ ردود أفعالهم خليط بين نفسية إنسان ونفسية وحش، فلا يُشبع ملذاتهم السادية سوى رؤية وشم وتذوق الدم ببهجة شديدة تنبع من معاناة الآخرين.

الجلسة الخامسة:

اليوم هو الخميس 24 كانون الأول 1992 ليلة عيد ميلاد المسيح والتي اعتاد ضباط المخابرات الاحتفال بها في فنادق خمس نجوم إذا لم تكن أفخم الفنادق بباريس، لم يسعهم هذه السنة فعل ذلك لأنهم قد حُشروا هذه السنة بين أروقة مراكز التعذيب وعلى الأخص مركز عبلة (عنتر سابقا) بن عكنون، لم يكونوا يتحدثون سوى عن طلبات الأطباق الراقية والمتنوعة التي يتم إعدادها في المطاعم الكبرى والعلامات الفاخرة من الشمبانيا، وفي غياب تلك الأمسيات المترفة سيضطرون إلى البقاء بصحبة الصعاليك الذين ذهبوا لجلبهم من منازلهم.

كالعادة كان أول عمل روتيني لهم في الساعة 7:30 صباحًا، يأتي العملاء المسؤولون عن المراحيض ليأخذونا لقضاء حاجتنا قبل وصول أسيادهم، يوقفوننا في صف واحد من اثني عشر نزيلا معصوبي الأعين وبترتيب متقارب حيث كل واحد منا يلمس كتف الشخص الذي أمامه، نبدأ بالتحرك ببطء ثم نتوقف أمام المراحيض الاثني عشر لندخلها دفعة واحدة، وبمجرد ولوجنا يتم تحديد مهلة زمنية مدتها ثلاث دقائق من قبل العميل المسؤول عن المراحيض، مع أول ركلة في الباب لابد لك أن تخرج أو سيتم جرك بالقوة على الأرض المبتلة، وهكذا تستمر عملية «المرحاض» هذه حتى استكمال قضاء آخر نزيل من الطابق الأرضي لحاجته، بعد انتهاء تلك المهمة النبيلة يقومون بتفريغ البرميل البلاستيكي الذي يستخدم كمبولة وهي مهمة لا تقل نبلاً عن الأولى.

على الساعة التاسعة بالضبط تم استدعائي إلى الأعلى للمرة الثانية منذ وصولي، تم اقتيادي بخشونة مرفوعا عن الأرض على يد ثلاثة أنذال ذوي بنية ضخمة بوزن المائة كيلو للواحد لكن رؤوسهم محشوة بالفول السوداني عوض دماغ طبيعي، فتحوا أحد الأبواب ودفعوني داخل غرفة وغادروا، دون أي شفقة أو تعاطف.

حين كنت أحاول النهوض ببطء شديد كنت أبحث على طاولة التعذيب وأدواتها المعتادة لكنني رأيت ما هو أشد رعبا: اثنا عشر زوجا من الأرجل والرؤوس الملثمة بالسواد إن لم يكن أكثر، فارتابني خوف لم أشهده في حياتي، كان هناك كرسي حديدي ضخم قديم جدا كأنه آت من مراكز أوشفيتز الألمانية، فتم وضعي فوقه وربطوا أيدي وراء ظهري بالأصفاد وكل رجل مع رجل الكرسي الحديدي، بعد كل إجابة صحيحة كانت أو خاطئة يقوم أحد الزبانية برمي الكرسي بقوة

شديدة ومع كل سقوط كان رأسي يرتطم بالأرض فأشعر بألم لكم أن تتصوروه يتراوح حسب قوة الدفع. بالنسبة لأولئك المتجردين من الإنسانية كانت عبارة عن لعبة حيث كان كل واحد يتداول على رمي الكرسي على الأقل مرة واحدة، لكن خمسة منهم لم يحالفهم الحظ لأنني فقدت الوعي في الرمية السابعة حيث لم يتوقف الدم عن السيلان وازداد الألم قوة لدرجة الإغماء.

حين استيقظت على الساعة الثانية ظهرا كان رأسي مضمدًا بكُمّ قميصي لأن العم سعيد اهتم بي. كان صوت في خاطري يقول: «تشجع فلقد اجتزت محنتك الثانية». استعدت وعيي ورشدي وشحت بناظري على هؤلاء الشباب المتكئين على الجدار المتجمد، كل واحد يحاول لف نفسه في ثلث بطانية سميكة مثل ورق التبغ، ملامحهم متجعدة وعيونهم غائرة، وفوق كل هذا النفسية المتدهورة بسبب التهديد الدائم القائم فوق رؤوسنا وهو الخروج من إحدى غرف التعذيب جثة هامدة.

بين الرابعة والخامسة مساء، بدأت الحركة في الطوابق العلوية تنقص شيئا فشيئا لأن تحضيرات ليلة ميلاد المسيح تجاوزت أهمية خلاص الجمهورية، قامت شاحنات خاصة بإفراغ كميات هائلة من الطعام والشراب على طاولات قاعة الطعام، أخبرنا بذلك جمال ت. س. الذي تم استدعاؤه للمرة الثانية للاستجواب على مائدة عشاء عسكرية باريسية، وكذا من أفراد الجماعة الجهادية الذين اعترضوا اتصالات بين الأجهزة الأمنية.

جمال ت. س. هو شاب حرفي يعمل لصالح نفسه تم استدعاؤه على الساعة السادسة والنصف مساء، لكن قبل التطرق لجلسة تعذيبه الثانية أود رواية جلسته الأولى التي تعرض لها قبل وصولي باختصار.

تم توقيفه في منزله بعد رحلة فرار دامت أكثر من شهرين حيث اختبأ في منزل أحد أقاربه في ضواحي المدية، وبعد أن تجاهل المخبرين من أطراف أخرى، والصحفيين الاستئصاليين العلمانيين والحركى المتطوعين من الجيران أو أولئك الذين غزوا شوارع حيه، خاطر بحياته لزيارة والدته. وحدث ما حدث، فبمجرد إنهائه لفنجان من القهوة وتدخين سيجارة وجد المنزل محاطًا من جميع الجهات. إهمال ثمنه اعتقال حوالي ثلاثين شخصاً. أُرسل إلى غرف الجحيم في اليوم الموالي لوصوله فغرّد بأسماء جميع أفراد جماعته والأنشطة التي يعرفها فكانت واحدة من أنجح عمليات صيد الضباع بالنسبة لمركز عبلة (عنتر سابقًا).

تجدر الإشارة إلى أنه لم يفعل ذلك بكامل إرادته بل تعرض لأسلوب تعذيب لا يصدق يسمى الزطلة والتبغ حيث كان مرغما على تدخين خمسين سيجارة ملفوفة بيد عملاء عبلة من بينهم عشرة محشوة بالقنب الهندي (الزطلة).

أجلسوه على الكرسي الحديدي المذكور سابقا وألصقوا بشفاهه سيجارة، وبمجرد استهلاكه لنصفها ينزعونها لإطفائها على صدره أما السيجارة المولعة العاشرة الممزوجة بالزطلة فتُترك في فمه لآخرها حتى تمنحه ذلك الإحساس بالسكينة والاسترخاء الذي يذهب العقل ويفكّ اللسان.

كما أخبرني خلال إقامتنا في سجن بربروس أن ذلك العذاب استمر لساعات طويلة وأظهر لي جسده المغطى بكثير من الحروق دائرية الشكل من صدره وصولا إلى بداية الجزء السلفي من جسده -قضيبه-.

وفي عشية عيد الميلاد عام 1992 تم طلب أخينا جمال ت. س. إلى الطابق العلوي، لم يكن مدعوًا إلى موائدهم بل كان مهرج التسلية والترفيه المهينة

والمشينة، بمجرد دخوله إلى الرواق حتى استبدل العملاء عصابة عينه بلثام وجه كامل حتى لا يتمكن من التعرف على أي واحد من أولئك البغال المتسكعة.

كانت ثلاث موائد كبيرة مترفة التقديم بشتى أصناف الطعام وكان النبيذ والكحول يسيلون ببذخ كما لو كانوا في مطعم صغير للعمال الباريسيين، آه يا قلبي، هذا هو حال البدائي إذا تحضّر والجائع إذا ملأ بطنه لذلك لم تعد البلاد في أيد أمينة، نعلم أن خالد نزار وتوفيق مدين يسافران إلى أوروبا بدون جواز سفر أو بروتوكول دبلوماسي فتخيل عجوزان شمطاوان سخيفان وأخرقان يجولان في عالم متحضر وسرعان ما يضيعون مثل الكلاب الضالة.

كان الأخ المسكين جمال. ت. س جالسا وسط الطاولات الثلاث، يستقبل في يده باستمرار مثل ما يحدث في طاولات «الشعبي: الكاس يدور»، أكواب قهوة بها النبيذ أو الكحول الذي يتوجب عليه شربه على نفس وتيرتهم وهو الذي لم يسبق له أن لمس المشروبات الكحولية في حياته، يعتقد الأخ أنه ابتلع أكثر من 50 كوبًا قبل أن يبدأ في التبول في ملابسه، ثم الدخول في حالة سكر لم يعرفها من قبل أبدا.

وبما أنه لم يعد قادرا على البقاء مستيقظًا قام نوادل الحثالة بجره من ذراعيه إلى بوابة الطابق السفلي التي تفصل بين الحياة والموت. كانت الساعة تشير إلى الرابعة صباحا حين اقتربت منه ببطء لأنني ظننته ميتا حينها شممت رائحة الكحول تفوح منه وملابسه ملطخة كليا بالنبيذ الأحمر.

الجلسة السادسة:

في يوم الجمعة 25 كانون الأول 1992 وبعد زيارة الحثالة المكلفين بالمراحيض والحصول على دلو الماء بدأنا كل واحد على حدى عملية القضاء على القمل والتطهير منه لأننا لا نملك سوى قشابية واحدة لاستبدال الملابس، بعد أربعة أيام فقط من الاعتقال وجدت ما يقارب مائتين قملة في قميصي وحده بأكمامه الطويلة.

كانت الساعة تشير إلى الساعة التاسعة أو التاسعة والنصف، وقبل فتح البوابة صرخ أحد الحثالة باسم عمي السعيد بأن دوره قد حان، أعرف ذلك الرجل منذ ثلاثين سنة، إنه شجاع وجريء وحازم لكن الخوف ظهر على ملامح وجهه، إنه خائف ويريد أن يرسل لي رسالة من خلال نظراته المعبرة للغاية والتي لا تصعب قراءتها، فأنا أعلم أن لديه الكثير من الأطفال وجميعهم صغار جدًا.

كان يخاف على مصير أبنائه لو حدث له شيء لذلك أتفهم فزعه وارتباكه، لقد مررنا جميعًا بمثل هذه اللحظات من الضعف، لكنها سرعان ما تتبدد في خضم تلك اللحظات مع أول تعنيف يقوم به حثالة نظام عصابة قطاع الطرق.

بخطوات متثاقلة اجتاز عتبة البوابة ليصعد على السلم العمودي تحت وطأة وحشية وإهانات الأوغاد، وبمجرد دخولهم الرواق استداروا بشكل غريب إلى اليسار، نحو مكان آخر للتعذيب يسمونه «الشامبرا»(*)[1] والذي تم إنشاؤه أثناء إعادة تطوير تهيئة المركز.

(*) الشامبرا: يقصد بها غرفة خاصة بتعذيب المختطفين والمعتقلين من طرف ضباط جهاز المخابرات.

هو مكان صغير منعزل يسمى حجرة التعذيب الناعمة، ففي وسط الغرفة يوجد سرير صغير يحل محل الطاولة الخرسانية في غرف التعذيب، لوحة تعليق الأدوات مثبتة على الحائط مع حقيبة عسكرية صغيرة معلقة على الجانب.

لاحظ العم السعيد ت. كل تلك العناصر من الوهلة الأولى وفهم على الفور ما سوف يدور هناك، كان يعرف ما هي نواياهم لكن ما الذي يمكنه فعله سوى التخبط لإعلان رفضه لهذا الفعل؟ حتى لو كان التعذيب في زمن الحرب فإنه عمل وحشي وغير إنساني.

تم دفعه إلى سرير بحجم مقعد حديقة عامة، وبعد الصراع والتخبط من شدة اليأس تمكنوا من التغلب عليه بعدة ضربات بذراع السلاح وحذاء الرانجاس، تم إجباره على الاستلقاء في وضعية مهينة أشد إهانة حيث يجد المعتقل نفسه مقيدا وركبتيه متباعدتين في منتصف هيكل السرير، يداه مقيدتان إلى رأس السرير ورجلاه مقيدتان بنهاية السرير، ولكي لا أدخل في تفاصيل يندى لها الجبين، أختصر المشهد فيما كان يقترحه الغوريلات الوسخة من وضعيات، حيث اقترح الأول أن يجلس على السرير ويأخذ «وضعية السجود»، والثاني اقترح وضعية أخرى تشهد على ثقافتهم الإباحية، في مثل هذا الموقف يغتصب العملاء السريون الجزائريون رجلاً، وأبًا جزائريًا أصيلا... والده ليس من تونس أو من المغرب.

تعرض المسكين لشتى أنواع العنف والاعتداء الجنسي: التعري واللمس واللواط الجنسي باستخدام قضيب حديدي رغم أنه اعترف بجميع التهم الموجهة إليه، حتى إنه اعترف بارتكابه لأعمال اخترعها من محض خياله وأشخاصا لم يكونوا موجودين أساساً.

من الواضح أن القارئ قد لاحظ المعاملة الخاصة التي يحظى بها العم السعيد ت. دون أي مبرر.

يبدو أن المتفجرات التي استُخدمت في الأبيار ضد هتلر الجزائر خالد نزار قد سلمها بيديه إلى منفذي التفجيرات بالعاصمة مع الانفجار، تسبب الخوف المفاجئ الذي أعقبه الذعر في حدوث إسهال مفاجئ عند اللواء العريف، مما جعله يطلب زيا عسكريا جديدا قبل أن يغادر سيارته المستهدفة في الهجوم. رأيي الشخصي؟ لقد كان محظوظا جدا، لا زلت أتمنى أن تستجاب صلواتي وأدعيتي من أجل أخذ الحق من هذا الظالم.

لقد اعتدنا ومن سبقونا في قاعة الموت تلك على التعذيب «الكلاسيكي» المتمثل في قطعة ممسحة مبللة والعصا والصدمات الكهربائية والعزل، هذه الطريقة الجديدة الجديرة بالمرضى النفسيين والمنحرفين بدأت تأخذ أبعادا مقلقة بالنظر إلى التعاون الوثيق للغاية بين الهياكل الأمنية الإرهابية المتعددة المنتشرة في الوطن.

هل جميع عناصر الأجهزة الأمنية مصابة بهذه الاضطرابات المرضية؟ هل جميعهم مجرمون سيكوباتيين؟ لا يبدو لي ذلك، من بينهم من يظهرون بشكل محترم في الحياة الاجتماعية لذا يجب أن نحاول يومًا ما الحصول على إجابات عما يدفعهم نحو ذلك الإجرام وراء تلك الجدران.

كيف يمكن تبرير ارتكاب كل تلك الأفعال المشينة المرعبة بيد جزائري على جزائري؟ أنا شاهد عيان رأيت الجروح الشرجية التي سببتها القضبان الحديدية.

تلك الضحية التي تعرضت لعنف جنسي على يد الدولة الجزائرية كان مواطن مسالما صادقا ومحترما يتمتع بحقوق ويقوم بواجبات يمنحها امتياز كونه مواطنا

جزائريا، فرّ من سجن انقلابيي يناير بعد أو وصل إلى أعلى مستوى من الاختلال النفسي والقسوة لدرجة الجنون الفعلي فبعد أن تعرض لكل تلك الوحشية من الاعتداءات الجنسية أصبح آلة قتل فتاكة.

عند منتصف النهار استقبلنا عمي السعيد الذي لم يكن قادرا على المشي ووجهه في حالة يرثى لها من شدة الضربات من شتى الأنواع. بمجرد أن اختفى الزبانية تقدمت منه لمساعدته على الجلوس وهو ما رفضه بشدة مما يدل أن بعض الحياة مازالت تدب في الرجل وفهمت في وقت لاحق أنه لم يكن قادرا على الجلوس فوق مؤخرته.

السبب الذي جعلني أطيل الحديث عن قضية العم سعيد ت. الذي كنت أعرفه شخصيًا هو تحقيق هدفين في نفس الوقت.

بادئ ذي بدء وبظهور اهتمام شعبي واسع أردت تأكيد وجود شتى أنواع الاعتداء الجنسي والاغتصاب ضد الرجال في جميع مقار الأجهزة الأمنية الجزائرية، مدنية أو عسكرية، كإجراء من إجراءات الاستجواب والتعذيب المنهجي المؤسساتي.

وثانيا، لأداء واجب ضروري لبناء جزائر جديدة غير قابلة للتجزئة تبدأ بالتحقيق في جميع أشكال العنف والوحشية الجنسية ضد الرجال والنساء على حد سواء.

سوف أتطرق لاحقا لحالة فريدة أخرى من حالات الاعتداء الجنسي تعود لما قبل العصور الوسطى، ضد أخ وشقيقته في مركز الشرطة في غرب جمهورية الجنرالات.

في 3 مارس 1994، حدث عملية فرار، من أكثر العمليات إثارة في العالم من حيث العدد والأسلوب، والأهم أنها كانت من أشد السجون تحصينا في الجزائر، ومنذ أن خطى العم السعيد أولى خطواته في جبال باتنة انطلق للعثور على عملاء دولة الجنرالات المتعفنين، سوف أسرد لكم بعض أعماله الانتقامية ضد جميع عملاء الدولة ممن يحملون السلاح ويرتدون البدلات.

الجلسة السابعة:

لقد جعلتنا أجهزة الدعاية نعتقد لفترة طويلة أن الأمن العسكري، وبكل تسمياته الموجودة، كان أثمن جوهرة للجزائر المستقلة، كنا جميعًا نؤمن بذلك وكنا جميعًا فخورين، لأن نشاطه الإجرامي آنذاك كان يقتصر تقريبًا ضد شخصيات غير معروفة جدًا لدى عامة الناس الذين كانوا ساذجين وملتزمين يؤمنون بالخرافات كما كنا نحن كذلك. لقد تمكنوا من خداعنا لبعض الوقت لكننا لم نعد كذلك الآن.

أدركنا ذلك سنة 1988 والتزمنا الصمت رغم جرائمه المتعددة، وفي عام 1991 أيقظنا الوحش متعدد الرؤوس الذي وصل عدد الضحايا على يده إلى أكثر من مليون، إنه مخلوق لا إنساني همجي لا هوادة فيه، كان لابد لنا من فهم ذلك منذ البداية فأذرع الوحش تمتد إلى كل مكان في هيئة قطيع بملابس خضراء أو زرقاء أحيانًا، الذي يُمتعَ ناظره ولا يتوقف أبدًا عن الابتهاج بعد ساعة فقط من إبادة العديد من الأبرياء.

بعد انتهاء نشوة السكر، استأنف عملاء قطاع الطرق صخبهم الكئيب في وقت متأخر من صبيحة يوم السبت 26 كانون الأول 1992، لا أعلم كم هي

الساعة لكن كان من المفروض أن يُستجوب أحمد د. من حسين داي في قضية تخصني وهي حيازة متفجرات وبندقية القنص.

تم العثور على كمية من المتفجرات لدى العم سعيد ت. مدفونة في أرض مسطحة على الطريق السريع الرابط بين بئر خادم وبن عكنون أما الباقي، وهي كمية لا يُستهان بها، من المفترض أن تكون في حوزتنا ما لم ننكر كلانا هذه الادعاءات لأن الوقائع تقول إنني كنت مسؤولاً عن بندقية القنص وكان هو المسؤول عن المتفجرات ومشغلات التفجير والمؤقت وجهاز التحكم عن بعد.

في غضون ذلك، كان الأشقاء الثلاثة بوسعادة يتعرضون جماعيا لاستجواب بغيض وعنيف. كان أحدهم مقيد اليدين والقدمين ملقيا ظهره على الطاولة، اقترب منه جلاد تحت أنظار شقيقيه وهو يمسك بيده شريطًا مطاطيًا مربعًا، من النوع الذي استخدمناه في شبابنا لصنع قاذف الحصى (تيربولات)، ليصنع عقدة كعقدة المشنقة ثم أنزل سروال الرجل المستلقي وكشف عن أعضائه التناسلية، ووضع العقدة حول خصيتيه التي عزلها بحركة بطيئة وخبيرة.

لكل سؤال متبوع بإجابة تعتبر غير كافية تزيد شدة السحب على الشريط المطاطي مما يضاعف الألم في تلك المنطقة الحساسة للغاية واستمرت تلك المعاناة مع الجلادين لمدة طويلة.

كان الهدف من الجلسة هو التحقق من وجود أيادي أجنبية في القضية وكالعادة كانوا يسيرون في الاتجاه الخاطئ، معتمدين في تحقيقاتهم على ثرثرة المخبرين وباعة الشائعات، فهذا يدل على أنهم غريبون على وظيفة الاستخبارات والتحقيقات اقتداء بمحاولة الأجهزة المغربية تحويل «الطولي» (مصفح السيارات)

عبد الحق لعيادة إلى تسوية سياسية فأجرت العديد من وكالات الاستخبارات الأجنبية اتصالات مع متشددين مؤيدين للعمل المسلح ضد هذا النظام الذي يقود البلاد نحو الهلاك، لقد أثبتت العديد من هذه الوكالات بالفعل نواياها وترتب عنها نتائج تؤكد حسن نيتها.

لقد عقدنا أنا وأحمد د. صفقة تبين أنها مفتاح خلاصنا وهي أن يقبل كل منا مصيره واتفقنا على سيناريو موحد: يجب أن يتحمل مسؤولية أي اعترافات خرجت منه في جلسات التعذيب السابقة، وإذا لم يتمكن من سحبي من القضية فسأعترف وأشير إلى المكان الذي كلفت ابنته الكبرى بإخفاء تلك المجموعة من المعدات الخطيرة فيه.

لقد استخدمت ابتزازا خسيسا لكنه كان بطاقة ضرورية لبقائي على قيد الحياة، كنت أعلم أنه لم يبلغ عني إلا حين هدده الضابط بالتعرض لابنته البالغة من العمر 15 عامًا وقد أخبرني أنه قد أمر كذلك بجلبها إلى المركز، لم نعد ندري هل كنا نلعب بحياة أفراد عائلاتنا مقابل حياتنا أو العكس لكنه كان يبدو عادلا للغاية في حد ذاته.

توجهنا لمواجهة الجلادين الجبناء والأشرار ونحن محملان ببعض الأفكار للنجاة، كان هو الأول في الالتحاق بطاولة غرفة التعذيب الرئيسية.

تم تثبيته بإحكام على البطن واليدين مربوطتين تحت الطاولة والقدمين على كل من أرجل الطاولة، تم تنزيل السروال إلى ركبتيه، ومكواة لحام ذات لسان أحمر وأزرق في اتجاه مؤخرته.

بدا صلبًا جدًا بالنسبة لهم نظرا لكبر حجمه ووزنه لكن ما كادت تنبعث رائحة احتراق الشعر عند اقتراب الحديد المتوهج حينها فقد وعيه وكان بحاجة إلى إيقاظه، تم حرقه في ردفه الأيسر مرتين فامتثل لشروط الاتفاقية، ثلاث مرات أخرى على الجانب الأيمن انزلق إلى العناد والمقاومة على حساب حياته، حتى أنهم هددوا بجلب ابنته لاغتصابها أمام عينيه لكنه لم يابه، وهنا يجب أن أعترف ومن تجربتي الشخصية أن الألم عندما تفوق شدته الاحتمال لا يصبح محسوسًا.

هذه الجلسة لم تدم طويلا لأن الاعترافات التي أدلى بها العم سعيد ت. كانت تروق للجلادين الذين تحققوا من صحتها.

لقد قطع العم سعيد ت. وترًا حسّاسا في شباك أكلة لحوم البشر من عملاء المخابرات، لقد اخترقت سيارة بيجو 504 سوداء على متنها شحنة من مادة متفجرة (تي إن تي) وتجاوزت حاجزا للدرك الوطني عند مخرج ولاية باتنة باتجاه الجزائر العاصمة، وبعد مسافة كيلومترين كان يتواجد حاجز ثاني والذي كان مقررا أن يعترضها في حالة فشل الأول لكنه لم يستقبل سيارة مطابقة للأوصاف أو يرى أي سيارة تعود أدراجها منتصف الطريق، سوف يظل لغز السيارة الشبح عالقًا في حناجرهم.

كان اعتراف أحمد د. يدعم اعتراف العم سعيد ت. الذي يعتبر مصدر المعلومات الخصب للهمج فلم يعودوا يعرفون في أي اتجاه يقودون الاستجوابات.

كان يتواجد رجلان في القبو يعرفان المزيد. من هما؟ بعد تفكير استنتجوا شخصين وهما: الأمير بلقاسم ب. وأنا المواطن المتواضع والمسالم الذي لا يشكل أي تهديد، هذه الحركة التكتيكية هي نتيجة التدريب والمعارف النوعية المكتسبة

في الخارج قبل التحدي المسلح لدولة قطاع الطرق والذي تم التخطيط له وتنظيمه قبل فترة طويلة من ظهور الأحزاب السياسية في عام 1990.

كان الجزائريون يسافرون في جميع أنحاء العالم ويدخلون في علاقات من جميع الأنواع، اهتمت دائرة الاستعلام والأمن المسؤولة عن أمن الأمة أن تعمل مع أتباعها من الجمارك على مصادرة الملابس أو العملة الصعبة من المسافرين في الموانئ والمطارات حين لا تكون مشغولة بالتدخل في الحياة الخاصة للمواطنين أو التنصت على هواتفهم.

تم التخطيط لحيلة الإلهاء في الطابق الأرضي مع الأمير بلقاسم ب.، حيث قررنا أن نعطي عن طريق الخطأ معلومات أخرى ضخمة بعد دخول العم سعيد ت. بشبح السيارة بيجو 504.

قرر الأمير بلقاسم ب. في نهاية المطاف التضحية بنفسه لخلاص المجموعة بأكملها الذين كانوا متهمين في القضية التي قادها.

لا أجرؤ على وصف كل المعاناة التي عانيت منها شخصيًا في أقبية ضباع دائرة الاستعلام والأمن لأنني لا أزال أعيشها كلما أغمضت عيني وسأعيشها بقية حياتي، فمجرد ذكر اسمي مرتبطا باسمهم يحيي في روحي أبشع أصناف الإهانة والإذلال لدى الرجل، أنا بصدد رواية ما حدث مع إخواني لأنها نفس المعاناة التي تكررت كثيرًا وذاقها جميع نزلاء ثكنة عبلة (عنتر سابقًا) في بن عكنون.

بعد مرور ساعتين عبر أحمد د. مدخل الطابق السفلي غير متضرر على الإطلاق ولم تحترق سوى لحيته الحمراء بمكواة اللحام كما مرت أردافه عبر نفس

الحديد الساخن، بشيء من الفخر أوما برأسه لي بمعنى أن «المهمة قد أنجزت» فتنفست الصعداء.

أكثر ما أود أن أحكيه للقارئ بنزاهة حول استجوابي عن السيارة المختفية هو كلمات ذلك الضابط الذي كان مقطوع الإصبعين برصاصة من بندقية محشوشة حيث قال لي: «إذا أعطيتني تفسيراً معقولاً لاختفاء سيارة بيجو 504 السوداء على الطريق، أعدك بأنك غداً ستُعرض على النائب العام» مما يعني ترك مركز عبلة والهرب من خطر الموت الذي يثقل كاهلي.

كان يمكنني أن أقدم إجابة صحيحة ومقنعة لكن تقييم نتائج الجواب لم يكن إيجابيا ولا تعمل لصالحي كما يمكنها إلحاق أضرار جسيمة بخلايا الدعم ومعارفنا بالمنطقة.

و أمام تمسكي بالصمت تقدم نحوي ليهمس في أذني:

- أليس محمد علال من كان سائق السيارة؟

- لا، لا أعرف أحدا بهذا الاسم.

- وموح ليفيي، هل تعرفه؟

- نعم، سمعت عنه.

في اليوم الموالي حضر كبار رؤوس المخابرات لحضور استجوابنا حول الاختفاء الغامض لسيارة بيجو 504، بالفعل لقد تبخرت في الطبيعة دون ترك أي أثر لكننا علمنا لاحقا أنها تعرضت لوابل من نيران الكلاشينكوف من الوراء لكنها لم تتوقف، دون أن أكون رأسا كبيرا في المخابرات فإن هذا المؤشر يكفي لتوضيح مستوى ومؤهلات العدو الذي نواجهه.

كما توقعت تماما تم استدعائي بشكل استعجالي إلى غرفة «التحضير للموت» لتأكيد اعترافات رفيقاي الاثنين حول تلقي سائق السيارة السوداء الشهيرة بيجو 504 لكمية من المتفجرات وبندقية القنص من قبل أسبوعين من اعتقالنا.

تم تسجيل اعترافي على الفور، ودون أضرار عدت إلى مكاني في زاوية من غرفة الطابق الأرضي، بدأ الوقت ينفد وكان على أغبياء مركز عبلة أن يحضروا ويرتبوا تقاريرهم المستوحاة من اعترافات كاذبة ومُصاغة دون تحقق.

الجلسة الثامنة:

اليوم الأحد 27 كانون الأول 1992؛ وصول شاحنات ضخمة تابعة لوزارة الدفاع الوطني في إطار ما أظنه التحضيرات والاستعدادات تتم بوتيرة قصوى مما ينتج عليه صرير لا نهاية له وضوضاء تأتي من كل مكان تُبقي عقولنا يقظة وتستنفد طاقتنا، وصول طاولات وكراسي وغيرها، فعلى ما يبدو فإن الجلسة ستكون اليوم مشابهة لجلسات النازيين تحت إشراف أدولف هتلر، حيث ستقام الجلسات على شكل أسئلة وأجوبة احتراما لفخامة الجنرالات الحضاريين منقذي الجمهورية وتحت أعينهم المشفقة وقلوبهم المراعية لنا نحن الشياطين المسكينة التي ضلت طريقها.

لابد أنه سيتم تصميم وتهيئة قاعة خاصة لهذه المناسبة حيث تم نقل الأثاث لإفساح المجال للكراسي والطاولات المخصصة لمؤخرات الجنرالات الثخينة.

منذ الساعة 9:30 صباحًا، اصطففنا نحن الأربعة: الأمير بلقاسم ب. والعم سعيد ت. والأخ أحمد د. وأنا معصوبي الأعين خلف ستارة سميكة في نهاية مكتب كبير به ثلاثة كراسي للمحققين.

بدأت الجلسة بالتحية العسكرية باللغة العربية وهو ما وجدته مضحكا في مثل هذه المناسبة، أسلوب الاستجواب يثير التناقض في قيم هذه المؤسسة العسكرية فلغة التواصل ليست هي نفسها في جميع مستويات التسلسل الهرمي: الرؤساء وكبار الضباط يتحدثون باللغة الاستعمارية أما المدراء وصغار الضباط فيستخدمون اللغة العربية، والعمال والمجندون يستخدمون لهجتنا الوطنية فتحسب أن وزارة الدفاع الوطني مؤسسة تابعة للجزائر الفرنسية.

تم طرح العديد من الأسئلة علينا خلال ثلاث ساعات بطريقة عفا عليها الزمن حول سيارة بيجو 504 السوداء ومستخدمها.

كان الأمير بلقاسم ب. ذو خبرة جيدة من حيث إدارة الموقف واستراتيجية المجموعة في ظل هذه الظروف تفوق بكثير جميع مهاراتهم المشتركة مما يثبت أن رحلته وتدريبه في الخارج لم يكن عديم الفائدة.

أجابهم بثقة كبيرة بالنفس وبطريقة مخادعة ذكية مدعيا أنه لم يلتق أبدا بسائق السيارة لكنه يعرف هوية صاحبها لأنه ركب معه عدة مرات في تلك السيارة التي هي ملك ابن أحد شخصيات النظام وهو رئيس الحركة الإسلامية المسلحة التي أسسها المجاهد الأسبق الراحل مصطفى بويَعلي وهو عبد القادر الشبوطي.

لم يتم العثور أبدا على سيارة بيجو 504 السوداء، المعروفة لدى الجماعة المسلحة ومصالح المخابرات وباسم السيارة الشبح، لم يتم تحديد هوية سائقها الذي اخترق بها حاجز الدرك حتى يومنا هذا، العديد من شهود السنوات الدموية يُلمحون إلى أنه ربما لا يزال على قيد الحياة ويعيش حياة هادئة تحت أنوف عملاء دائرة الاستعلام والأمن.

بعد أن ألقى الأمير ذلك الاعتراف سادت الدهشة وجوه الجميع وبرزت عيون الحثالة من الذهول وأصاب الشلل الجنرالات السمينة الغليظة في مقاعدهم، كما تفاجأنا نحن كذلك من تأثير القنبلة التي ألقيت وسط أرض العدو ونحن نعلم جيدًا أن الحقيقة هي عكس ذلك تمامًا فابتهجنا برؤية رؤوس القرود المبتسمة.

بعد مرور وقع المفاجأة تمت إعادتنا إلى القبو كالعادة باستخدام القوة وظل الأمير بلقاسم ب. في الحبس الانفرادي، لقد قلب كل تقديراتهم الاستقرائية رأساً على عقب وهو ما يعني بلغة عصابة الزبانية لدائرة الاستعلام والأمن التشكيك في «الاستراتيجية» المستخدمة.

بالنظر إلى هذا التغيير غير المتوقع في «استراتيجيتهم»، فمن الواضح أن مجموعتنا ستكون قادرة على الاستفادة من استراحة قصيرة.

في صبيحة يوم الإثنين 28 كانون الأول 1992 لم يكن هناك صخب وضوضاء كبيرة، ولكي لا يخرجوا عن روتينهم المعتاد تم تجهيز شاب من باب الواد، والذي التقيته لاحقا في سجن لامبيز، لأحدى الجلسات مع الجلادين، تمنيت له ضربًا مثل الضرب الذي تلقيته في جلستي الأولى والذي يمر منه أي شخص معتقل في وكر الشياطين هذا.

تمّ النداء عليه باسمه وإن لم تخني الذاكرة فإن اسمه الهاشمي يبلغ من العمر 29 عامًا وهو أستاذ لغة إنجليزية.

في أول مواجهة لي مع الجلادين كنت مرعوبا من عدد أزواج الأرجل ورائي، بعد سؤالين أو ثلاثة فقط تم رفعي والإلقاء بي في الهواء، وعندما سقطت انهالت عليّ الركلات في جميع أنحاء جسدي، وهناك أيضا فقدت اثنين من أسناني.

خلال المجموعة الثانية من الرفسات انزلق سلاح أحدهم وسقط كما لو أنه تحت تأثير مغناطيسي بين يدي، ذبّ الذعر بين عملاء الرعب لأن الخوف يغيّر المعسكر عندما ينتقل السلاح للطرف الآخر، أمام تفاجئهم المقترن بترددي أملت عليّ الحكمة والفطرة السليمة وضع السلاح أرضاً.

طال استجواب أخينا الهاشمي، وكلما طالت فترة غيابه كلما زاد خوفنا عليه، لا نعرف شيئاً عن نشاطه أو أسباب اختطافه، كنا ندعو من أجل أن يهونِ عليه الأمر قدر الإمكان في هذا المحتشد السري للمعلقين بين الحياة والموت.

وأخيرا عاد دون علامات ضرب على وجهه لكنه كان يبدو عليه التعب والاكتئاب على وجه خاص وكأنه لم يعد مهتمًا بشيء، ذهب مباشرة إلى ركنه ليجلس على الحائط ويثني رأسه بين ركبتيه، لم يجروْ أحد على الاقتراب منه فلا أحد يعرفه ولا أحد متورط معه، بقي على حاله التأملي لفترة طويلة حتى حلول الليل.

مكث معنا يومين آخرين قبل نقله إلى مكان آخر، ربما ألحقوه بمجموعته ففي بعض الأحيان يتم انتظار القبض على أصدقاء لك لجمعهم معًا في نفس الغرفة أو الزنزانة اعتمادًا على تقدم التحقيقات وعددها.

بعد بضعة أشهر، وجدت الشاب الهاشمي في فناء السجن الذي كنت فيه وهو سجن لامبيز، كان هادئًا وصامتًا غير اجتماعي على الإطلاق. كل يوم، يمشي مثل الروبوت نحو وسط الفناء ليقف بشكل مستقيم مثل إشارة المرور وبدون تعب يظل يتبع دوران ظله أو حركة الشمس، لا أعرف بالضبط كيفية التعامل معه، فلا يوجد نزيل يعيره أي اهتمام لأنه أصلا يرفض تبادل أطراف الحديث.

بما أنني كنت أعرف باي محطات مرّ للوصول إلى سجن لامبيز في هذه الحالة، كنت مقتنعًا أنه تعرض لفظائع مهولة، حاولت جمع معلومات عنه بين المحتجزين الشباب فوجدت شابا من باب الواد يعرفه فأخبرني ما حدث له في عبلة (عنتر سابقًا)، لقد تعرض للتعذيب بسبب دروس اللغة الإنجليزية التي أعطاها للطلاب الصغار في المنزل، لقد جربوا كل طرق التعذيب الكلاسيكية عليه: العصا، الكهرباء، الممسحة المبللة... إلخ. في النهاية، كسروا عضو رجولته مرتين بإغلاق درج مكتب على أعضائه التناسلية تحت وطأ الركلات. باستثناء القيام بعملية جراحية كانت حالته ميؤوسا منها.

ولختام هذا الفصل حول التعذيب المنهجي لفخامة الاستعلامات والمخابرات الجزائرية، سأروي كيف قام هؤلاء الرجال المروعون المنبوذون ذوو السلوك اللاإنساني باعتقال شاب يبلغ من العمر 19 عامًا بالقرب من قاعة الصلاة في حيه أين كان يأمّ الناس لصلاة العشاء.

كان أمين شابًا وسيمًا جدًا ونظيفًا بملامح رقيقة تم رميه في منتصف الطابق الأرضي حوالي منتصف الليل مرتديا قميصه الأبيض في مكان ترفض حتى الكلاب البقاء فيه، حيث كانت الأوساخ وسوء المعاملة والقمل ورائحة البراز والبول وخاصة البرد والجوع والعطش وحتى المرض يتربصون بنا في كل مكان، فلقد عشنا في ظروف مشابهة تقريبا أو أفضل قليلا للمحتجزين اليهود في محتشدات أوشفيتز.

تم إطلاق سراح الشاب أمين في الأخير بعد فترة طويلة من الإساءة إليه من طرف أولئك المدمنون على الجنس الشرجي من دائرة الاستعلام والأمن، ثلاثة

منهم استغلوه جنسياً لإشباع غرائزهم الحيوانية ليس لشيء سوى تعليمه كيفية التسكع مع الإسلاميين وإمامة صلاتهم.

لطالما اعتقدت أنه إذا كان بإمكاني استخدام الكلمات الصحيحة والمعبّرة فإن الناس ستفهم وتكافح من أجل تغيير الأوضاع وتنظيف العدالة التي تعمل بموجب الأوامر والمطالبة بوضع حد للإفلات من العقاب أينما يتم انتهاك حقوق الجزائريين.

أنا أحد الناجين من بين الآلاف من مئات مراكز الاعتقال السرية أو تلك المعترف بها مثل مراكز الشرطة والدرك المنتشرة في جميع أنحاء التراب الوطني، لا يجب أن يظل تاريخ حرب الجنرالات وضحاياهم محاطًا بالغموض إلى أجل غير مسمى كما يجب الإجابة وتوفير معلومات تخص العديد من الأشخاص المعروفين اليوم باسم «المفقودين»، كان المواطنون يُختطفون من منازلهم ليلاً سواء كانوا معارضين أو أبرياء ليتم تسليمهم إلى كتائب الدرك قبل بزوغ الفجر، وفي منتصف النهار تأتي فرق الموت لتجمع معتقليها الذين يقومون بدفنهم أحيانًا أحياء في مقابر جماعية محفورة مسبقًا أو يتم توجيههم إلى مراكز اعتقال سرية ليظلوا هناك مدى الحياة.

بحسب معطيات رسمية يجب التحقق منها حيث تم اختطاف أكثر من عشرين ألف جزائري من منزله بتعليمات من القيادة العسكرية العليا مماثلة لتعليمات أدولف هتلر في مداهمات «الليل والضباب» والتي كانت ترمي إلى القضاء على «المخربين» وجعلهم يختفون إلى الأبد، وظلّت أمهات المختفين تطالب بلا كلل بالحقيقة حول مصير أطفالهن على مدى ستة وعشرين عامًا.

من بين هؤلاء النساء الشجاعات اللواتي وضعن الخوف جانباً ورفضن ضغوطات وابتزازات الشرطة، نذكر والدة أمين نتاش التي أصبحت تشكل تهديداً جديداً ضد نظام سلالة بوتفليقة المتغطرسة.

أم أمين نتاش شخصية ملهمة للجيل الجديد من النشطاء الأحرار، فهي أم ترفض الصمت تم اختطاف ابنها القاصر في 27/2/1996. ترتدي خمارها على رأسها وتحمل حقيبة على كتفها وصورة ابنها في يدها لتكون حاضرة في جميع الساحات العامة كرمز لتحدي الطغمة العسكرية والمطالبة بـ«حق الذاكرة وظهور الحقيقة وتحقيق العدالة» لجميع المفقودين.

أم أمين نتاش وباقي الأمهات مقهورات من الغضب والحزن، فبأي حق يمكن أن يأخذ طغاة طاغارين دون عقاب أثمن هدية عند الأم وهو طفلها؟ كما أنهن مدركات أيضًا بالمخاطر التي ينطوي عليها فضح الطغاة الذين ما زالوا في السلطة فتكرّمن بإعفائنا جميعًا من ربط أنفسنا بتضحياتهم.

حين بدأت كتابة هذه المذكرات كنت أبلغ من العمر 64 سنة لكنني تخليت عن الكتابة لأنني لم أستطع الحصول على دعم رفاقي الذين يرفضون بعناد شديد عرض قضيتهم على الرأي العام وهم مستمرون في الرفض إلى يومنا هذا.

اليوم وأنا متقاعد أعيش تحت سماء أقدم ديمقراطية في العالم ومن خلال هذه المذكرات المتواضعة الآتية من أرض اللجوء التي استقبلت مئات العائلات الجزائرية، أحث إخوتي الباقين على قيد الحياة ورفاقهم على تحرير ضمائرهم وإطلاق العنان لمشاعرهم من أجل الوفاء بالعهد تجاه جميع الضحايا وأطفالهم وآبائهم وأقاربهم.

أنا أعلم أن وصمة الإذلال والإهانة التي ما زلنا نحملها جميعا حتى لو لم تعد مرئية للآخرين فهي باقية في ذاكرتنا لا تمحى بسهولة، لكنّنا نُعتبر آخر الناجين من جحيم الجنرالات وعددنا ليس بقليل، وواجب نشر الحقيقة لتحقيق العدالة يتطلب منا أن نقدم شهادة الحق حول الأحداث التي عشناها بحذافيرها، كما يطالبنا بعدم ترك صفحات بيضاء جبانة في تاريخ العشرية الدموية المزوّر على يد الشرطة السياسية ووسائل إعلامها وقضائها، جلسات التعذيب الواردة في الصفحات السابقة تعكس بإيجاز أوضاع آلاف الشباب الجزائريين الذين تم احتجازهم في مراكز التعذيب التابعة للمؤسسة العسكرية.

كان الشباب الجزائري يختفي في غموض أو يموت بوحشية في سرية تامة، والبعض الآخر محكوم عليه بأحكام قاسية يقبع حتى يومنا هذا في سجون الطغاة دون حقهم القانوني في الطعن في الأحكام وفي عزلة تامة وتعتيم تام من قبل صحافة نظام ليس لديه ما يفرّقه عن النظام النازي.

الأمير ب. بلقاسم

من بين المتهمين في مجموعتنا بتقديم المعرفة والمساعدة اللازمتين في تصميم الهجمات الثلاث بمطار الجزائر ووكالات الخطوط الجوية الفرنسية والسويسرية كان الأمير بلقاسم ب.، هو الأكثر طلبًا في الاستجوابات والأكثر عرضة للتعذيب، بقينا معًا في نفس الزنزانة في سجن بربروس لمدة ثلاثة أشهر فأخبرني بجميع أسراره وكل ما تعرض له من سوء معاملة جسدية ونفسية مهينة ومشينة منذ اعتقاله في وهران كما لو كان لديه شعور بأن نهايته باتت قريبة، كما تحدث إلي بإسهاب عن مرضى الجنس الشرجي على مستوى جميع الهياكل المسيّرة في هذه الدولة العسكرية.

بدأت جلسته الأولى مع التعذيب في ماجنتا وهو مركز للشرطة السياسية يعادل كافينياك في الجزائر العاصمة، كان نقله إلى عبلة (عنتر سابقًا) يتطلب استخدام سيارات عادية من أجل ضمان أقصى درجات الأمن، كما شاركت في العملية جميع مراكز الشرطة والدرك المهمة على طول الطريق، خطورة الأمير بلقاسم المضخمة بشكل مروع كانت مصدر كل أنواع التعذيب في كل محطة.

خلال الأيام الثلاثة من الرحلة وفي كل محطة يتوقف عندها، كان إما يتم تعليقه بالأصفاد إلى الأنابيب المارّة على طول الجدران، أو يتم تقييده ويداه خلف ظهره وملقى على أرض مشبعة بالمياه مما يمنع عنه النوم، كان الضباط الكبار يتدفقون من كل مكان إلى الكتائب أو مراكز الشرطة بفضولهم متحمسين لرؤية أمير من الجماعة الإسلامية المسلحة، كما أنّه تعرض للركل والسب والبصق والتبول عليه إضافة إلى تجريده أحيانًا من ملابسه كاملة بغرض الاعتداء عليه جنسيا.

يعمل عرين دائرة الاستعلام والأمن عبلة (عنتر سابقاً) ببن عكنون في الجزائر العاصمة كثكنة عسكرية عادية، خلف تلك الواجهة الخارجية المخادعة لا يدرك عامة الناس أن هناك مركزًا يحتضن أقبية وزنزانات للإبادة مكتظة بمئات المعتقلين الأبرياء، في أسوأ الأحوال كان الإسلاميون أو المتعاطفون مع الجبهة الإسلامية للإنقاذ يتعرضون للتعذيب أو القتل بأبشع طرق التعذيب، والأمير بلقاسم ب. يعتبر من بين الرجال الأقوياء الذين نجوا بحمد الله تعالى.

لكن السؤال الذي يجب طرحه هو: منذ استقلال الجزائر كم عدد الجزائريين الذين مروا بهذه الاستجوابات تحت وطأة أساليب تعذيب تعود للعصور الوسطى؟ العديد من الشخصيات التي من الجيد أنهم بفضل الله خرجوا جميعًا على قيد الحياة، لكن كم سيكون عددهم إذا راجعنا محاضر مراكز الاعتقال السرية هذه منذ أحداث 1988؟ ومن هم مرتكبي تلك المجازر لو راجعنا أرشيف وزارة الدفاع الوطني؟ ستقولون أنه يتعين علينا الحصول على موافقة فرنسا قبل ذلك طبعا.

لن أكون مبالغا إذا أكدت أن التقديرات تتجاوز بضعة آلاف مع العلم أن النظام كان يلجأ دائمًا إلى الإعدامات المستهدفة خلال السبعينيات، وفي

الماضي القريب جدًا استغل النظام مؤسسات الدولة في التعذيب والاختطاف والإعدام على نطاق واسع على يد عناصر الجيش والدرك والشرطة وبتعبير أدق ميليشياته المسلحة.

نظرًا لاكتسابه لقاعدة متينة من التربية الدينية، كان الأمير بلقاسم ب. في الاستجوابات يجمع بين تبني جميع الأعمال التي وقعت تحت مسؤوليته، والإجازة فيمن يمكن أن يضر بالجماعة أو أي عنصر من عناصرها وخاصة الأعمال المستقبلية أو المُخطط لها مسبقا.

من أجل تحويل الاهتمام المستمر بنا ونحن بين أيديهم كان من الضروري تشتيت انتباههم وتحويله نحو سمكة أكبر خارج أسوار المركز لذلك بدأ بذكر أسماء ثقيلة من مجاهدين إرهابيين وهم نفس الأشخاص الذين حضروا تجمع تمزقيدة وأعطوا الضوء الأخضر للعمل المسلح، أدى هذا الاعتراف غير المنتظر إلى الإطاحة بكبار الشخصيات البارزة والعملاء المزيفين، تمت مقاطعته عدة مرات وكان عليه أن يكرر كلماته في كل مرة، كان قد أشار إلى المخابرات الأجنبية من خلال ممثليّاتها الرسمية في الجزائر، وقد وصف بدقة وتفصيل المعلومات التي كانت بحوزتهم مسبقا بل وذكر أسماء لم يرغبوا (دائرة الاستعلام والأمن) في الكشف عنها في جلسات التعذيب مما ساعدهم في النهاية على فكّ خيوط قضايا أخرى أكثر خطورة وأهمية.

كان الأمير قد تحدث عن لقاءاته مع عبد القادر الشبوطي ومنصوري ملياني ومحمد علال وجعفر الأفغاني ومدني مزراق وشريف قوسمي وأمير فرع التيار القطبي بمنطقة الغرب بالإضافة إلى تفاصيل جولته بناحية وهران.

خلال الأيام العشرة التي لم نر فيها الأمير بلقاسم ب. مرة أخرى لم نتعرض للاستجواب أو التعذيب، لقد دفع الثمن بدلا عنّا حيث كان يتم نقله واستجوابه كل يوم في أماكن سرية مع محققين مختلفين، قام بتقديم معلومات وحقائق يمكن التحقق منها ولا يمكن تتبعها بسبب سرعة تتابعها مع الوقت، في آخر المطاف قرر رؤساء الغاشمين حفظنا في الثلاجة ووضعنا تحت تصرفهم في سجن بربروس.

علمت منه لاحقًا أن اجتماع في تمزقيدة قد تعرض لهجوم مروحي عند الغسق وأن بعض المشاركين أصيبوا من بينهم عبد الرحيم حسين.

كان هو ومحمد لفيبي قد تنقّلا بسيارة تم الاستحواذ عليها من شخصية سياسية قريبة جدًا من الجنرال توفيق، وخلال الهجوم لجأ كلاهما إلى تجويف صخري حتى الصباح.

حوالي الساعة 10 صباحًا، مروا لأخذ سيارة باصات كبيرة لدى أحد السكان في الجوار وتوجهوا إلى الجزائر العاصمة، في الطريق تم توقيفهم عند حاجز للدرك فقام بلقاسم ب.، والشخص الراكب معهم بشحن أسلحتهم لأنهم كانوا من نوع الرجال المصممين على استعداد دائم للقتال، لكن محمد لفيبي كان هادئا، كما يفعل أمير حقيقي، فأمر الإخوة بعدم القيام بأي تصرف وأنه سيهتم بالأمر، عند تقدمهم من أول دركي في الحاجز أوقف السيارة وأنزل زجاج نافذته، قام الدركي بإلقاء التحية وطلب أوراقهم فأجاب محمد لفيبي: «زميل! نادي الضابط المسؤول» وهو يلوّح ببطاقة مهنية بين أصابعه.

على الفور جاء ضابط شاب برتبة ملازم لإلقاء التحية عليهم فرد عليه محمد لفيبي بدوره بكل هدوء ولوّح ببطاقة مزيفة لعميل سري بمركز عبلة (عنتر

السابق) وتبادل معه حديثا وجيزًا حول ما حصل في الليلة الماضية ثم ودّعه لتنطلق السيارة باتجاه الجزائر العاصمة وبالتحديد منطقة جسر قسنطينة منصة انطلاق شريف قوسمي وجمال زيتوني.

كان عدد المعتقلين يزداد بمقدار عشرة أفراد كل يوم، تسارعت وتيرة جلسات التعذيب لدرجة أننا لم نعد نهتم لا بالوقت ولا بمن لم يعد، أولئك الذين أصبحوا فيما بعد من تعداد «المفقودين» أو «أفراد الجماعة الإسلامية المسلحة الزائفة الجديدة»، لا أحد يمكنه التكهنّ؟

سوف يتساءل القارئ لماذا ذكرت «أفراد الجماعة الإسلامية المسلحة الزائفة الجديدة» سأورد الإجابة لاحقًا بالتحدث عن تلك التشكيلات العسكرية التابعة للدولة التي استبدلت البدلات الخضراء وحلق الذقن بارتداء القشابية وتطويل اللحية.

في أحد الأيام ذو صباح جميل سيبقى محفورا في ذاكرتي إلى الأبد تقدم شاب بزي مدني يرتدي ربطة عنق وقميصًا أبيضا ليفتح بكل هدوء بوابة الطابق السفلي يحمل بين يديه وثائق وأوراق.

بما أنني الأول في قائمته قام باستدعائي لأمثل أمامه فطلب مني رفع الوشاح عن عيني والنظر إليه، كان شابا بملامح طالب خجول، بلهجة محسوبة نصفها كلمات ونصفها إشارات سلمني محضر الإفادة.

- اقرأ ووقّع المحضر.

- لا أستطيع القراءة، الجو مظلم هنا.

- يمكنك مغادرة هذا المكان إذا قمت بالتوقيع.

- أوقع دون رؤية المحتوى؟

- هيّا وقع وأخبر أصدقاءك أن يوقعوا دون طرح أسئلة.

شعرت من نبرة صوته برغبة صادقة في رؤيتنا نترك عرين الموت هذا، لذلك توكلت على الله تعالى ووقعت. لا بأس، فليكن، لا يوجد أسوأ من مركز عبلة (عنتر سابقًا) للموت.

عدت إلى مكاني في القاعة ونصحت رفاقي بالتوقيع دون تردد لأنه قد تسنح فرصة تقديمنا في ذلك اليوم أمام المحكمة.

وبالفعل تم نقلنا بعد ساعة داخل شاحنة شرطة، كانت أيدينا موثوقة بالأصفاد وراء ظهورنا ولم يكن سوى عميلان من عبلة مسؤولان عن العملية وبما أن الرائحة التي كانت تنبعث منا كانت كريهة وغير محتملة لم يكونا قادران على الاقتراب منا.

خلال الطريق بين بن عكنون ومحكمة عبان رمضان فهمت السبب وراء عدم تعريضنا عمدا لجلسات التعذيب خلال العشرة أيام الأخيرة من احتجازنا لأنهم كانوا يريدون تقديمنا أمام وكيل الجمهورية بمظهر على الأقل يشبه الإنسان ووجه لائق لا تشوبه ضربات أو كدمات.

عند الساعة العاشرة وصلنا إلى قصر العدالة بعبان رمضان حيث يعمل قضاة المحاكم الخاصة، هؤلاء القضاة تم إجبارهم لاحقًا على العمل دون الكشف عن هوياتهم وراء أقنعة، تمّ عرضنا على المدعي العام وتم سماع قراءته تحت تهديد

الكلاشينكوف خلف رؤوسنا بحيث نواجه أحد عشرة تهمة أحكامها تتراوح بين السجن لمدة خمس سنوات والإعدام.

تم غلق الملف بسرعة ليتم إرسالنا مباشرة إلى سجن بربروس على الساعة 5 مساءً، كان استقبال درك باب جديد وحراس السجن عدوانيًا للغاية فكان التعنيف والوحشية جزءًا من مصيرنا، تم حلق اللحى والشوارب مع ركلة هنا وصفعة هناك، تم وضعي أنا وثلاثة إخوة في زنزانة بها شقوق كبيرة مليئة بالنباتات الكثيفة، واضح أنها كانت مغلقة منذ رحيل الدرك الفرنسي ولم تُفتح حتى وصولنا، زنزانة ميتة منذ إعدام آخر شهيد كان يسكنها ويبدو أنها كانت تنتظرنا لإعادتها إلى الحياة أو بالأحرى تأهيلها من جديد.

من بربروس إلى لامبيز

امتدت فترة اعتقالنا بسجن بربروس من 19 يناير إلى 28 مايو 1993، في ظروف مزرية وقاسية تحت حراسة مشددة وقيود صارمة لكننا كنا نحاول التعافي من حالة الهزال التي كنا نعيشها وهو ما كان أولويتنا، كان علينا استعادة قدراتنا الجسدية والعقلية لمواجهة قضاة المحاكم الخاصة التي أنشأتها حكومة عصابة جنرالات انقلاب يناير حيث بدأوا حملة إبادة طويلة الأمد ضد النشطاء والمتعاطفين مع الجبهة الإسلامية للإنقاذ وأقاربهم.

كان الجنرال خالد نزار ومحمد مدين واسماعيل ومحمد العماري ومحمد التواتي يشكلون الطغمة العسكرية التي أطاحت بالرئيس الشاذلي بن جديد وعهدت بالحكومة إلى الحركي سيد أحمد غزالي، للقيام بالقضاء على «الإسلاميين» وسحق أي صوت من شأنه أن ينهض ضد القرارات الديكتاتورية للمجلس العسكري، ولقد قام الوغد بتنفيذ تلك الأوامر المتوحشة على أكمل وجه.

دامت محاكمة تفجير المطار 25 يومًا، بغض النظر عن السلوك العدواني لبعض الحراس مثل ذاك المدعو «رتيلا»، الذي كان فيه بذرة جنونية شريرة وهو أقذر وأرذل عنصر من أذناب رجال الدرك والشرطة.

كل صباح صنعه الله في شهر مايو 1993 كانوا يُذيقوننا عقابا بشكل منتظم تحت أعين المسؤولين، كان الذهاب والإياب من وإلى المحكمة مزعجا أحيانًا لكنه أعطانا أيضا الفرصة للتعارف، ذات يوم طلب مني رشيد حشايشي طيّار في الخطوط الجوية الجزائرية تكبيل أيدينا معًا للتعرف على بعضنا البعض بشكل أفضل، لقد أمضينا وقتا طويلا من تلك الجلسة المملة في ذلك اليوم نتسامر بعيدا عن السيناريو الذي كان يُعرض أمامنا الذي كان فيه الأحكام والعقوبات محضّرة مسبقًا.

كما شهدنا كذلك على موقف رجل شهم ذو طبع حاد وعنيد لا يعرف الخوف إليه سبيلا والذي تجاوز كل حدود الشجاعة خلال المحاكمة لذلك سأروي هنا ما حدث بين منصوري ملياني وقائد الدرك، في محيط محكمة سيدي محمد، الذي ناداه من وراء ظهره:

- «إي، هل أنت ملياني الشهير؟

فاستدار ملياني ليرد عليه:

- نعم، هذا أنا، وماذا في ذلك؟

- آه، إذن هذا أنت، يا ابن العاهرة.

- إنه أنت ابن العاهرة، أنظر إلى حالك لا تملك حتى نفسك أيها العبد.

- خذ هذا! وبصق في وجهه.

مسح ملياني بيده التي يمكنه تحريكها وجهه، ورغم أنه كان يتحرك بصعوبة لأنه كان مصابا برصاصة في قدمه إلا أنه تقدم من الضابط متكئًا على عصاه وعينيه تُشعّ حدة وبلسانه الشجاع قال له:

- أنت جبان لذلك تهاجم سجيناً هكذا.

وعلى الرغم من صعوبة الأمر استطاع أن يُوصل بصقة كبيرة من فمه لتغمر وجه القائد القبيح.

كان رد الفعل عنيفًا من الدركي الذي تمت إهانته أمام الملأ والذي فوجئ بشجاعة ملياني فانقلبت قاعة المحكمة رأسا على عقب حيث تجمع حشد كبير حولهما من جميع موظفي سلك الحركى ولم تهدأ الأوضاع سوى بتدخل القاضي الذي أمر بفك المشاحنة، لم يتم سرد الحادثة من قبل وسائل الإعلام أو من قبل المحامين المنتدبين للقضية.

لو بدأ جميع المعتقلين السابقين الذين لا يزالون على قيد الحياة بسرد المحن التي عاشوها، ولو حتى القليل منها، فإن الشكوك التي تحوم حول مرتكبي إرهاب الدولة ستنجلي ليتضح من كان الإرهابي الحقيقي.

إن المؤسسة العسكرية بجميع قواتها المسلحة وقوات الشرطة والدرك والميليشيات الخاصة قد خططت ونظمت ونفذت بشكل غير قانوني قمعًا منقطع النظير، ليس فقط ضد عائلات عناصر الجماعات المسلحة ولكن أيضًا وقبل كل شيء ضد نشطاء المجتمع المدني وحقوق الإنسان والكتاب والصحفيين والفنانين والطلبة وأي فرد يشتبه في تعاطفه مع من يعتبرونهم أعدائهم.

إن سجن بربروس بكل سوء المعاملة فيه وصغر حجم الزنزانات واكتظاظها، وهي ظروف تتميز بها كل السجون الجزائرية، لا يمكن مقارنتها مع الكابوس الذي عشناه بمركز عبلة (عنتر سابقًا) لذلك كان بربروس بمثابة وجهة أحلامنا.

بعد خمسة وعشرين يوما من جلسات الاستماع تم النطق بالحكم. كانت عقوبات ثقيلة من بينها سبعة أحكام بالإعدام وبراءة واحدة فقط لمحمد متلو المتهم بأنه صديق وسائق الشيخ عباسي مدني، مجاهد سابق أُطلق سراحه واغتيل لاحقًا في مسرحية فبركتها الأجهزة السرية لدولة قطاع الطرق، اشتهر بنشاطه التجاري أكثر من علاقته بالشيخ عباسي مدني إذ كان أحد المصنعين والموردين القلائل للملابس الجلدية في الجزائر العاصمة.

في الثلاثين من شهر ماي، إن كنت أتذكر بشكل صحيح، وفي الساعة 6 صباحًا جاء الحارس لإيقاظنا وإخبارنا أن نستعد للمغادرة، بينما كنا منشغلين بجمع أغراضنا الشخصية كان عدد كبير من الحراس يجتمعون أيضًا في الفناء الكبير لتنفيذ مهمتهم الأخيرة وهو تفتيش جسدي بشكل سيئ وفحص دقيق وصارم لجميع أغراضنا، وفي الأخير تم تقييدنا وتقديمنا مكبّلين إلى كتيبة القوات الخاصة التابعة للدرك.

عبرنا واحدًا تلو الآخر البوابة الموصلة إلى وسائل النقل، ومرة أخرى خضعنا لتفتيش وحشي وعنيف من قبل عناصر الدرك.

أخيرًا وبعد ساعتين من التوتر دخلنا العربات ليأتي أحد العملاء في بدلة خضراء ليضيف زوجًا آخر من الأصفاد لربط كل واحد من السجناء السبعة والعشرون إلى ظهور مقاعدهم، زوجان من الأصفاد لركّاب عاجزين.

انطلقت العربات باتجاه القاعدة العسكرية ببوفاريك تحت سلسلة من الإجراءات الأمنية المعززة حيث لم تنقص سوى العربات المدرعة فلقد خرجت محمّلة بمجموعة من السجناء المصنفين شديدي الخطورة.

جميع هيئات أمن الدولة كانت في حالة استنفار قصوى، وحتما قد تساءل سائقو السيارات الذين استخدموا آنذاك الطريق السيار بين الجزائر وبوفاريك عن سبب قيام رجال مسلحين في سيارات الشرطة والدرك بإخلاء الطريق لحافلة تبدو عادية.

لا أتذكر ما إذا كانت نوافذ الحافلة مظللة لكن السبب الرئيسي لعدم رؤيتنا من الخارج كان شيئا آخر، اضطررنا إلى وضع رؤوسنا بين ركبنا طوال 40 كيلومترًا أي تسعين دقيقة حسب السرعة المحدّدة.

في اليوم الموالي كان سكان الجزائر العاصمة يتكلمون عن ذلك التشكيل «المبهر» لعربات التدخل المسلح، وكان الجميع تقريبًا يفكرون في المؤامرة التي تمت حياكتها ضد الأبرياء وكانوا محقون في ذلك فمن يدري لربما كان الجاني أو الجناة الحقيقيون لا يزالون على قيد الحياة؟ أنا شخصياً أؤمن بذلك بشدة، أثناء ترجمة هذه المذكرات علمت أنه حتى عام 1997 كان صانع الهجوم لا يزال على قيد الحياة.

خلال الرحلة، تعرضنا لمعاملة وحشية وسوء معاملة خاصة سعيد سوسان وحسين عبد الرحيم، لكننا وصلنا سالمين إلى مدرج المطار حيث كان طائرة من نوع هرقل س–130 جاهزة لاستقبالنا.

بمجرد الوصول إلى هناك توقفت الحافلة على بعد حوالي مائة متر من طائرة الشحن المكلفة بنقلنا إلى لامبيز مرورا بقسنطينة.

بعد التفتيش المعتاد على الأرض والذي استمر حوالي ثلاثين دقيقة تم أمرنا تحت وطأة لكمات وركلات أفراد القوات الخاصة التابعة لقوات الدرك المسؤولة

عن عملية نقلنا بالخروج واحدًا تلو الآخر ففعلنا ذلك دون شكوى فما الذي كان بوسعنا فعله أمام أولئك المدجّجين بالأسلحة؟

من أجل احتواء غضبي ضد ذلك الاحتقار الذي لا يوصف حاولت أن أتخيل هؤلاء المتعجرفين وهم يواجهون عدوًا حقيقيًا يعادلهم في القوة.

كنا لا نزال مكبّلي الأيدي وراء ظهورنا عند نزول الطائرة. اصطففنا مع تباعد مترين بين كل واحد حيث كنا نحن سبعة وعشرون «إرهابيا» وهم مئتا دركي من القوات الخاصة استبدلوا الهراوات البلاستيكية أو الخشبية، كل منهم لديه غصن شجرة في يده، فهم يستعدون لاستقبالنا بعنف، في «Branchonnade» لن ننساه أبدًا.

من ناحيتي، لم أكن أهتم كثيرًا، بوحشيتهم، كنت دائمًا أتحمل عواقب قراراتي، لكنني أعتقد أنني اكتشفت صلوات إخوتي الذين يخشون الأذى الذي يمكن أن تلحقه بنا هذه العاهات البشرية، أصلي معهم.

فجأة سمعنا حركة إطارات سيارةٍ تنعطف بسرعة عالية على الطريق السفلي، متجهة مباشرة نحونا، توقفت فجأة من قبل أولئك الضباط، كانت سيارة درك خضراء وبيضاء، يخرج ضابط وجميع الحاضرين يقفون للانتباه، يحيي رجاله وينظر إلينا بالكفر قبل أن يخاطب الضابط الذي يقف خلفه، أنا متأكد من أنه أعطى تعليمات أنقذتنا من المزيد من المعاملة الوحشية والمؤلمة، هذا النوع من «أعطهم على متن الطائرة، إذا أردت، ولكن ليس على الأرض».

قام أفراد القوات الخاصة بشحننا على متن طائرة النقل بحذر شديد، لا يسمحون بتسريح أيدينا ولو لوهلة واحدة مخافة قيامنا بفعل انتحاري، بدأوا

بربطنا واحدًا تلو الآخر بشكل آمن مع الحزام الذي يعبر منطقة الشحن بالطائرة، فرّقوا أذرعنا على شكل خط قطري حيث الذراع اليمنى عالية جدًا فوق الرأس والذراع اليسرى نحو الأسفل فأصبحت الحركة شبه معدومة.

كانت الطائرة تحلق على ارتفاع منخفض وبابها مفتوح على مصراعيه طوال الرحلة لإخافتنا أو جعلنا نعتقد أنه سيتم إلقاؤنا من الطائرة، من شدة خوفهم من أي ردة فعل محتملة منا، وخاصة السجناء المحكوم عليهم بالإعدام، قاموا بربط أنفسهم بعناية شديدة وبطريقة محسوبة تمنعهم من الوصول إلى باب الطائرة.

كانوا خائفين لدرجة أنهم انهالوا علينا ضربا حتى الموت على متن الطائرة، اعتداءات جبانة من قبل رجال مدربين على محاربة المسلحين المطلعين على قواعد القتال العادل، وبدلاً من ذلك يهاجمون وسط السماء رجالاً غير مسلحين مقيدين بأمان بحزام صلب.

وصلنا أخيرًا إلى قسنطينة فأنزلونا ونحن منهارون تمامًا، تم نقلنا من الطائرة إلى حافلة نقل المساجين التابعة لولاية باتنة والتي جاءت لاستقبالنا بالمطار العسكري تحت وابل من ضربات الهراوات فوصلنا إلى الحافلة ونحن نشعر بدوار خانق، استغرقت عملية نقل السبعة والعشرين معتقلاً أكثر من ساعة، لقد تم تطبيق إجراءات صارمة ومشدّدة ضد رجال لم تكن أي عدالة في العالم ستُدينهم على ضوء الملف المؤلف من أكثر من 500 صفحة بائسة.

الكابوس لم ينته بعد...

أدرك الحراس المرافقون لنا في الحافلة، بعد خمس دقائق من السير، أن رائحة كريهة تغزو المكان مما أجبرهم على استخدام مناديلهم أو قرص أنوفهم طوال الطريق من قسنطينة إلى باتنة.

بالنسبة لنا لم تكن الرائحة الكريهة تزعجنا إطلاقا لأنها كانت تنبع منا ومن ملابسنا التي تفوح منها رائحة الدموع والدم والبول والقيء، ملابس مرهقة وغير قادرة على الرد على هجماتهم الوحشية بقيت فقط كحماية لأجسادنا.

يقولون إن القانون يسمح لهم بذلك كما أنه مكتوب بالأسود على أبيض في القرارات التي أصدرتها عدالة نظام جنرالات يناير.

ساعتان من الطريق مرفوقين فيها بالشتائم والبصاق وبشكل هائل، وصلنا أخيرًا إلى مدينة تازولت حسب ما كان يدور من حديث بين الحراس الثلاثة حيث كان أحدهما يجلس بالقرب من السائق والآخر في المنتصف والثالث في مؤخرة الحافلة.

لم نكن نستطيع معرفة مكاننا فكل تنقلاتنا كنا نقوم بها في وضعيات غير مريحة، الأيدي مربوطة إلى ظهر المقعد والرأس على الركبتين، فحتى في وسائل النقل الخاصة بهم يجب أن يشعر المرء وكأنه في زنزانة.

دون رؤية انهماك الحراس باستعدادهم لنهاية الرحلة، أدركنا من تصرفاتهم أننا وصلنا إلى وجهتنا تقريبًا وهي منطقة لامبيز حيث تم بناء ثالث أكبر سجن في العالم: صَرْحُ لامبيز.

قللت الحافلة من سرعتها لتغادر الطريق الرئيسي في اتجاه السجن السابق الكبير الذي كان الجيش الفرنسي يُرسل إليه أسلافنا المخربين، بعد بضع مئات من الأمتار توقفت أمام بوابة بنية كبيرة تتيح دخول سيارات نقل المحتجزين.

عبرت الحافلة البوابة المفتوحة وسارت ببطء في مسارها بقدر المستطاع وسط حشد من الحراس وتحت أنظار الرجال المسلحين في البوابات وأبراج المراقبة ولم تتوقف إلا بعد وصولها إلى وسط الفناء المركزي حيث كانت حصة ضرب عنيف بالعصي تنتظرنا.

كإجراء احترازي تم تنزيل المحكوم عليهم بالإعدام أولاً يُقدرون بسبعة أفراد وتوجهوا إلى جناح خاص في السجن وهو بالتأكيد مميز للغاية، بمجرد أن ابتعدوا عن الحافلة بدأوا في تنزيلنا بوحشية واحدًا تلو الآخر، شكل الحراس المسؤولون عن الاستقبال صفين متوازيين وهم مسلحين بالعصي الخشبية وأمرونا بلغتهم المبتذلة بخلع ملابسنا والاحتفاظ بها في أيدينا دون حركة أو رفع رؤوسنا أو التحدث، بداية رحلة العذاب في هذا السجن شديد الحراسة هو تجاوز ممر من 80 متراً بالحصول على أقل عدد ممكن من الضربات ودون أن نفقد ملابسنا أيضًا لأننا كنا سنبقى معزولين لمدة أسبوعين كما جئنا واجتزنا ذلك دون التعرض إصابات خطيرة.

قبل أن أبدأ سباقي بين صفيّ الحراس رفعت عيني لوهلة خاطفة، و تمكنت من رؤيته هو كتلة هائلة من الطين الباهت مرصّعة بنوافذ صغيرة دا محاطة بالقضبان.

أمام هذه الصورة التي تذكرني بالساحات الرومانية التي يتنافس وسطها المصارعون والعبيد في بطولات دامية لا تمنح أي رحمة للفائز أو الخاسر مع عدم وجود نجاة في الأخير، انهارت قدراتي الجسدية والعقلية تمامًا ولم أعد أستطيع التحكم في أفكاري نتيجة للرعب الذي تنفثه بقايا مدينة لامبيسا القديمة.

كل ما ينقص لمعسكر الأعمال الشاقة هاذ هو تعليق لوحة على مدخله تحمل الشعار الزائف لحركة فرانكو في إسبانيا: «يمكننا أن نؤكد، دون خوف ودون خطأ، أن أي شخص زار سجون دول أخرى وقارنها مع سجون بلدنا، أنه لا يمكن أن تجد مؤسسات عادلة مسيحية وإنسانية مثل تلك التي أنشأتها حركتنا».

في نهاية ممر الحراس الشرفي يوجد مدخل وحدة الاعتقال المركزية التي من شأنها أن تؤوينا في الطابق الأرضي وتم توزيعنا على زنزانات فردية، على الفور أطل فريق من الحلاقين لتخليصنا من الشعر واللحية والشارب، بعدها وصل دلو ماء وبطانيتان زرقاوتان، ويد ثانية مدتنا بأوعية الطعام من الألمنيوم.

يمكننا القول إن العد التنازلي لسنوات طويلة من الطهارة قد بدأ مع هذا اليوم الأول في لامبيز.

في هذه الأماكن المروعة والمشؤومة لا يوجد أيّ دليل يسمح بمعرفة الوقت فقد أراد طغاة «خلاص الجمهورية» أن يمحوا تواجد الساعات والدقائق والثواني من حياتنا.

ينتهي البرنامج حوالي الساعة 6 مساءً مع إغلاق الزنازين لتبدأ حرية المحرومين من حريتهم.

غادرنا الأسوار العالية لسجن بربروس الساعة 6 صباحًا، سرنا لأميال تحت ظروف صعبة وحلّقنا على ارتفاع منخفض في وضعيات متعبة ومربكة جدا لساعات طويلة، طوال رحلة اليوم بأكمله وبالإضافة إلى عدم وجود سلطة على أنفسنا، فقد تُركنا بدون طعام أو ماء.

بدأت أوجاع الضربات على الرأس والأضلاع تؤلم وأصبح الجوع أكثر حدّة لذلك كان من الضروري أخذ قسط من الراحة ففرشت بطانية على الأرض ووضعت حذائي تحتها كوسادة، استلقيت وغطيت نفسي بالبطانية المتبقية وإذا بي أغطّ في نوم عميق في أول ليلة لي في لامبيز.

في صباح اليوم التالي حوالي الساعة الثامنة تم دق جرس المنبه بفعل دوي قوي لضربات على الأبواب الحديدية الثقيلة وإذا هم معتقلون في قضايا قانون عام ليصبوا لنا مغرفة من القهوة وقطعة خبز على شكل إفطار صباحي، على هذا الإيقاع ووراء تلك الأبواب المغلقة بقينا مدة أسبوعين.

بعد نهاية الفترة الابتدائية تمكنا من مغادرة زنازيننا واستنشاق الهواء النقي في فناء الاستراحة ساعتين صباحًا وساعتين في الظهيرة كل يوم.

لأكون صريحا يجب أن أعترف أن قواعد الحرمان من الحرية في هذا السجن صارمة وتتبع حرفيا ومع ذلك يتم تسجيل بعض التجاوزات هنا وهناك والتي تُعزى بشكل أساسي إلى السجّانين العرابدة مثل واحد كان اسمه جمال الذي كان يصفع بيده اليمنى كل صباح ما يقارب مائة معتقل بشكل عشوائي، وأود ذكر شيء بهذه المناسبة وهو أنه فقد ذراعه اليمنى في حادث طريق بعد فترة من عملية الهروب.

طوال فترة العزلة، كان سجناء القضايا العامة الذين يقتربون منا بحكم أنشطتهم يظنون أننا عملاء الدولة الصهيونية متسللون إلى صفوف الإسلاميين، لقد كانوا مقتنعين جدًا بتلك الدعاية لدرجة أنهم اتخذوا منا موقفًا لئيمًا وكانوا يعاملوننا بقساوة.

ذات صباح تعرّف عليّ السجين المسؤول عن وجبة الإفطار وهو شاب ينحدر من حي رويسو الشعبي في الجزائر العاصمة، فسألني بصوت منخفض جدًا إذا لم أكن من حي القبة فأجبته بالإيجاب، أعطاني ابتسامة وكأسا مليء بالقهوة وشريحة إضافية من الخبز.

على مدار الأيام أخبرني أن الإدارة أبلغتهم عنا، مشيرًا إلى أن مجموعة قدمت من إسرائيل ودخلت البلاد للمشاركة في الهجمات وأعمال التخريب أي مجموعة كاملة من السيناريوهات السخيفة والدعائية.

لم تكن الإقامة الطويلة في لامبيز صعبة حقًا من حيث سوء المعاملة، على الرغم من بداية امتلاء السجن الملعون من العصر الروماني أكثر قليلاً كل يوم نظرا لمحاكمة عدد كبير من الجزائريين أمام محاكم خاصة سريعة، غالبية هؤلاء المعتقلين كانوا من المناطق الشرقية والوسطى.

كانت عمليات الوصول المستمرة تتيح لنا بتلقي تحديثات للمعلومات حول الأنشطة على أرض الواقع لكن كان من الضروري فرزها جيدا للتمييز بين المعلومات والدعاية.

تلقينا الكثير من المعلومات المباشرة والموثوقة والمفصلة من خلال قاعة الزيارات على الرغم من التواجد الكثيف والصارم لحراس وظلال دائرة الاستعلام والأمن.

بالنسبة لي كان هذا النظام المغلق يناسبني تمامًا فلطالما فضلت البقاء «غير مرئيا» وفعلت ذلك حقًا إلى أن اقترب مني رجل يُدعى صالح س. بينما كنا نسير إلى قاعة الزيارات، كان ذلك قبل أسبوعين من ليلة 31 أغسطس 1993 المصيرية.

في تلك الليلة، تعبت من المشي لمدة ساعتين في الفناء فأويت إلى الفراش أبكر قليلاً من المعتاد، بعد صلاة العشاء مباشرة كنت نائماً بعمق حين أيقظني فجأة صوت إطلاق نار من سلاح آلي قريب جداً قادم من داخل السجن بكل تأكيد ففكرت في محاولة فرار دون قناعة كبيرة بذلك.

في صباح اليوم التالي 31 أغسطس 1993، كنا نتساءل جميعًا في الفناء عن حادثة الليلة السابقة، لم يكن أحد لديه أدنى فكرة لكن الأمر لم يستغرق سوى ساعة من الصبر لمعرفة ذلك، ما يكفي من الوقت لممرض السجن للتحدث إلى أهالي باتنة.

حوالي الساعة 10:30 صباحًا، تم إدخال الممرض إلى الفناء فاستقر في ركنه المعتاد وبدأ في توزيع الأدوية التي وصفها طبيب السجن، حينها اقترب منه باتني ووقف بشكل يحجب رؤية الحارس وطرح عليه السؤال: «ما هي الطلقات التي سمعناها في تلك الليلة؟

فأجابه بتدفق قصير من الكلمات وعلى دفعة واحدة كما لو كان قد أعد إجابته مسبقا:

– تم إعدام إخوتكم المحكوم عليهم بالإعدام في تفجير المطار حوالي الساعة 2 صباحًا، كانت الدفعة الأولى من الرصاص لحسين عبد الرحيم، أما الآخرين فتم إعدامهم بالطريقة المعتادة: طلقات معدلة ثم إكمالها بشكل فردي».

هذه الرواية الموجزة للغاية التي أبلغ عنها نزيل يعمل في المستوصف تم إثرائها لاحقًا بتفاصيل المعاملة السيئة التي تعرضوا لها قبل الإعدام وبعده، لسوء الحظ ستخفي المنظمات المستعبدة من قضاة وصحفيين هذه الحقيقة الكاملة المتمثلة في التجاوزات اللاإنسانية التي تخترق عمدًا القوانين التي ينص عليها الدستور.

وكما أوضح الحراك الشعبي في 22 فبراير 2019، فإن هذه النخبة من الأشخاص المحصنين من العوز هي من تمثل الخزان الذي لا ينضب من الرجال والنساء الذين زرع فيهم النظام الخوف والخضوع، فمن الصحيح أنه لا يمكن أن يكون هناك عملاء بدون ديكتاتورية ولا ديكتاتورية بدون عملاء.

الأخ صالح س.، الذي تحدث معي في الطريق إلى قاعة الزيارات، هو من أصل شاوي خالص من عائلة محترمة وثورية من مدينة باتنة، علاقاته مع موظفي الأمن في محتشد لامبيز جيدة وهو ما يظهر جليا في معاملتهم له.

بالاستفادة الذكية من تلك الامتيازات، تم نقله إلى نفس بناية الحجز معي حتى نتمكن من التحدث بحرية أكبر، على الأقل هذا ما اعتقدت أنها كانت نيته الفعلية لكن هدفه في النهاية كان بالغ الأهمية.

بعد أن تأكد من خلفيتي ومن مكان إقامتي بالجزائر العاصمة وأهم شخصية من معارفي في باتنة، أفصح لي عن خطة قيد الإعداد للسخرية من المخابرات التابعة لدائرة الاستعلام والأمن وتفجير كل جهودهم منذ بداية الصراع المسلح، أخبرني حدسي عن مخطط للفرار من ذلك السجن اللعين.

علمت من خلال محادثاتنا أن خطة الفرار كانت تهدف في البداية إلى إطلاق سراح المحكوم عليهم بالإعدام وعلى وجه الخصوص أولئك المدانين في ما يسمى بقضية المطار، لكن تطبيق حكم إعدامهم المتسرع بعد أسبوعين فقط من رفض الطعن الجماعي ضد أحكام المحكمة مما فاجأ المجموعة المكلفة بالتخطيط لعملية الفرار وتنفيذها.

لن أذكر أسماء أشخاص هنا، بل سأخاطب أولئك الذين ينسبون عملية الفرار ودون تقديم أدلة لبراعة الجواسيس الذين قاموا بعمل بارع بأمر من قيادة دائرة الاستعلام والأمن، وهي طريقة غبية للإشادة بجهاز قمع قدم الكثير من التضحيات البشرية والمادية لتوقيف ألف ومائتين من الإرهابيين، ثم نزلت عليه فكرة من السماء فجأة لتسقط في رأس «رب الدزاير»: «دعونا نطلق سراحهم ونقتلهم في هروبهم جماعيا لنتخلص منهم».

لقد كنا مقتنعين منذ وقت طويل بالفعل، وقد أثبت الوقت لنا وللناس جمعاء ذلك، بأن معبد بن عكنون المروع لا يأوي سوى أعظم الساديين في تاريخنا وأكثر الشخصيات شهرة الذين يتقاتلون من أجل سيادة الشر والذين كَره حتى الموت أخذهم معه. «ليأخذهم الله بقبضة قدير جبار».

الفرار من السجن
والبطلان المجهولان

حين عدت بذكرياتي الأليمة إلى تلك الفترة الصعبة من حياتي بالتزامن مع الحراك الشعبي.

لم يكن شيئا سهلا أن أشير إلى عملية الاستحواذ على المؤسسة العسكرية من طرف الضباط الساميين الذين تداولوا على حكمها إلى يومنا هذا، المعتلون النفسيون بطاغارين يرون الحراك بمثابة تهديد يمكن أن يكون نقطة بداية لامتحان وإعادة تقييم جدّية لجميع جرائم النظام، فالتجاوزات الحديثة لجلادي عبلة (عنتر سابقا) تُبرّر إعادة فتح النقاش أمام الرأي العام حول جميع التجاوزات وخرق حقوق الإنسان التي قامت بها تلك المنظمة الإرهابية المسمّاة «الدولة».

طوال الفترة التي تم احتجازنا فيها في الوحدة المركزية كان الأخ صالح س. يعطيني فكرة عامة حول الوضع داخل أسوار السجن وصعوبة الحصول على تعاون من خارج السجن كما أوضح لي جميع التدابير التي يجب توخّيها من قبل المشاركين في عملية الفرار الكبرى.

كانت نبرة صوته تعبّر عن مرارة وحسرة لأنه لم يتقبّل ذلك التماطل الذي سمح للطغاة بتطبيق أحكام الإعدام في حقّ خِيرة إخوتنا، كما أنّه كان يعلم أن الحوار لدى الإسلاميين والجهاديين كما هو الحال دائما ينتهي بالجدال والخلاف فتمّ تأخير العملية التي كان من المفروض أن تتم قبل 31 أغسطس 1993 بسبب خلاف عقيم وحُجج تافهة بين جماعة الشرق وجماعة الوسط.

سألعب دور المترجم لذلك الفشل بالتأكيد على أن مخطّطي عملية الفرار تعلّموا كيف يضعون خلافاتهم جانبا في مواجهة العدو المشترك، كما فهموا أن قيادة سعيد مخلوفي لا نقاش فيها وأنه من المستحسن أن يكون للعملية أمير من نفس المكان متواجد داخل السجن أثناء القيام بها وهو ما حصل بالفعل.

الأخ صالح س. لم يكن سوى الأخ الأصغر للعقل المدبر وقائد العملية التي أحدثت نزيفا قاتلا في قلب سجن لامبيز وأعطت ضربة لأجهزة مخابرات عبلة، استطعنا أن نبقى مجتمعين معا لمدّة شهرين ولا أعلم إن كان ذلك قد حدث صدفة أو بتأثير عوامل أخرى كنت أجهلها.

رغم كلّ القناعة المتواجدة في حديثه وحججه وثقته الكبيرة بقي شك يراودني في أعماق باطني وظلّ صوت خافت يهمس لي شيئا مغايرا تماما: «هل بإمكان شباب غير مدرّب من الجماعات المسلحة أن يهاجم ويستولي على قلعة مثل لامبيز؟»، كما فكرت أنه من الجنون كذلك أن نستيقظ كل صباح بأمل البقاء وراء هذه الأسوار التي يتعذر عبورها.

في كل ليلة بزنزانتي كنت أقلّب تلك الأفكار التي استحوذت على عقلي فلم أستطع ان أقنع نفسي بإمكانية تنفيذ الخطّة دون الوصول إلى فكرة نجاح العملية لكنّ شُعلة الأمل كانت متواجدة حيث يسود اليأس والهلع.

كانت عملية تغيير الزنزانات المتكررة داخل السجن عبارة عن إجراء أمني يهدف لمنع تشكّل جماعات منظّمة، في اليوم الموالي جاء دورنا لتحويلنا إلى زنزانات أخرى في وحدة أقلّ صرامة من حيث ظروف السجن، حيث كانت الزنزانات واسعة ونظيفة بها أسرّة مصفوفة الواحد فوق الآخر لأربعة مساجين فأصبح لديّ رفقاء زنزانة، واحد من الجزائر العاصمة واثنان من قسنطينة.

تحسنت ظروف اعتقالنا قليلا فقد كانت لزنزانتنا نافذة تطل على مسلك العربات فكنا نتابع حركة السيارات وتبادل دوريات الحراسة كما كان باستطاعتنا أيضا التحدث مع بعض الحرّاس بعد غلق الزنزانات حيث كانوا يودّون تبادل النقاش حول هذا التمرد المسلّح بدوافع سياسية.

لم نعد أنا والأخ صالح س. نلتقي منذ التغيير الأخير لكنّه كان دائما ما يعلمني حول تطورات العملية وفي بعض الأحيان كانت الرسائل التي يرسلها عبر شخص أخر مشفّرة تماما يصعب فهمها.

لأكون صريحا مع القارئ فأنا أعترف أن التخطيط لمسألة الفرار كان يشوبها التعتيم فكنت كالسائر في ضباب تام وهو شيء مؤسف بالنسبة لي لأنني كنت أود أن أطّلع على تفاصيل أكثر.

وكجواب على تساؤلاتي الملحّة حدثت واقعتين متقاربتين خلال أسبوعين سأرويهما.

كنا بصدد إقامة صلاة العشاء حين توقف أحد الحراس أمام النافذة لمشاهدتنا فلاحظ أن العاصميين يُقصِرون صلاتهم في حين أن القسنطينيين والباتنيين يكملونها، وبمجرد إتمام الصلاة أشار لي بلباقة لأقترب منه وسألني:

- لماذا يكمل الآخران الصلاة؟

فأجبته:

- هم من قسنطينة، ويعتقدون أن تقصير الصلاة اختياري فقط.

فهز رأسه وقال:

- أنا من باتنة ومن تازولت بالذات وأقصر في صلاتي نظرا للظروف.

بهذه الكلمات التي قالها عن دراية بدأ دمي يجري في عروقي بسرعة، واندفعت الكثير من الأفكار واستقرت كلمات صالح س. في رأسي، كنت بحاجة إلى أن أكون وحدي وأتأمل في ما سمعته مرارًا وتكرارًا.

الحادثة الثانية وقع في نفس الظروف تقريبا، كان الوقت ليلا ومتأخراً بقليل عن المعتاد، بقينا نحن الأربعة نتسامر حول حلويات خفيفة نتناقش ونفك المعلومات التي وصلت إلينا لأنه كان يوم الزيارات.

توقف حارس آخر كان مناوبا في تلك الليلة لعدة دقائق عند نافذتنا لفحصنا بعناية كما لو كان يبحث عن رجله، ثم اقترب وأشار إلي قائلا:

- هل أنت من الجزائر العاصمة؟

- نعم.

- من أين بالضبط؟

- لماذا تسألني ذلك؟

- أعلم أنك من القبة.

كدت أصاب بنوبة قلبية عندما قال كلمة القبة.

- نعم أنا من القبة ولكن كيف تعرف ذلك؟

ابتسم ثم قال:

- هل ستتمكن من استخدام كلاشينكوف إذا أحضرتها لك؟

ودون انتظار إجابتي استأنف سيره نحو الوحدات الأخرى التي تحت عهدته.

بقيت مذهولا دون حركة مثل التمثال، ومض جرس إنذار في ذهني بعدها توقف كل شيء لأنه كان من المستحيل تجميع أية أفكار.

بعد هذه المحادثة القصيرة بقيت صامتًا ومتأملاً لفترة طويلة، كنت أحاول معرفة المعنى الدقيق وفحوى الرسالة التي أراد إيصالها إلي فقد كان فك الشيفرة سهلاً وخطيرًا، كانت الكلمات بسيطة لكن وقع معناها كان عميقا، لذلك قررت الاتصال بالأخ صالح. س، وطلبت منه أن يجد طريقة للمرور قليلاً إلى زنزانتنا فوجد ما هو أفضل، فبعد يوم الزيارة الموالي تمكن من إقناع رئيس السجن بمنحه بضع دقائق في فناء وحدتنا لإعطائي نصيبي من الكسرة بحجة أنني لا أتلقّى زيارات كثيرًا.

أقل من خمس دقائق من تبادل الحديث كانت كافية لتهدئة مخاوفي، كان للأخبار أثر مثل القنبلة: يوجد تواطؤ من داخل السجن وهو تواطؤٌ مسلح.

هذا التوجيه نحو زنزانات جماعية مع تغيير المعتقلين بشكل عشوائي قد سمح لنا بقضاء ستة أسابيع في ظل نظام سجن مريح وجيد، خلال هذه الفترة التقيت

بالسجين فيصل ك.، وهو أحد أقارب مدير المؤسسة فربطتنا علاقة صداقة جيدة فكان كثيرًا ما يروي لي أحاديثه مع عمال إدارة السجن.

في أحد الأيام بعد عودته من إحدى زياراته للمدير أخبرني عن ما دار بينهم حول شخصية الشيخ علي بن حاج، الذي كان قد قضى عقوبة بالسجن خلال الثمانينات هنا في لامبيز والذي كان موظفو المؤسسة العقابية يصفونه كسجين نموذجي وقائد لا نقاش عليه.

كما أخبرني أيضًا عن واقعة حدثت مع زعيم بربري كان لعلي بن حاج فيها موقفا لا يقبل الحياد، فخلال شهر رمضان كان سعيد سعدي لا يصوم ويغيظ الحراس كثيرا بعرض تصرفه البغيض حاله حال الذين يستفزون مشاعر الصائمين بساحات تيزي وزو، بعد عدة إنذارات قرر مدير السجن فرض عقوبة أسبوع في زنزانة تأديبية عليه.

بعد علم الشيخ بلحاج بهذا الإجراء التأديبي الذي اتخذ بحق الرجل، الذي سيصبح حليفًا لدائرة الاستعلام والأمن فيما بعد، هدد الشيخ علي بن حاج والإخوة باللجوء إلى الإضراب إذا لم يتم الإفراج عن الرجل على الفور، فاستدعى مدير السجن الشيخ علي بن حاج إلى مكتبه لمحاولة إقناعه بأن العقوبات اتخذت وفقاً للإجراءات التأديبية وأن الخطأ الذي ارتكبه السجين كان مخالفاً لأحكام الشريعة الإسلامية. لكن الشيخ علي بلحاج دحض بشدة حجج الإدارة معتمدا على عدم وجود نصوص يمكن أن تعاقب المعتقل لرفضه الصوم خلال شهر رمضان وأصر على أنه والسجناء الآخرون متمسكون بتهديدهم بالإضراب، تم بعد ذلك الإفراج عن سعيد سعدي على الفور ليس بفضل التضامن حول قضية

البربرية المشتركة بل يعود الفضل في المقام الأول إلى الموقف المتشدد للإسلاميين الذين كان لهم وزنهم وكذا عددهم الذي يمكنه إحراج رئيس المؤسسة.

في هذا اليوم 23 يناير 1994 كنا متوجهين إلى الفناء ففوجئنا بعملية تفتيش جسدي وهو نوع من الإجراءات التي لا يتم اتخاذها أبدًا دون أسباب أمنية.

هذا التفتيش الذي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالحياة في بيئة السجن لم يحدث عن طريق الصدفة من المؤكد أن تدابير إضافية ستتبعه.

بينما كنا نمرّ بالتفتيش الشامل كان حراسا آخرون يفتشون الزنزانات وممتلكاتنا الشخصية، كنا أربعين سجينا وبوتيرة تفتيش بطيئة للغاية استغرق الأمر ساعة على الأقل لإكمال العملية.

كان الانتظار طويلا ومرهقا كما كنا نُخمّن ما تخبئه لنا هذه الحركة، تغيير داخلي أم تحويل إلى مؤسسة أخرى؟ كنا نتمنى بشدة أن لا يحدث نقل أو تغيير للمؤسسة العقابية ليس خشية الذهاب إلى سجن آخر لكن ما كنا نخشاه أكثر من أي شيء هو سوء معاملة رجال الدرك الذين سيرافقوننا أثناء التنقل.

بعد ساعتين من الانتظار، بين خوف وأمل، طلبوا منا أخيرًا العودة إلى زنازيننا وحزم حقائبنا لأن إدارة السجن قد قرّرت تغييرا في توزيع المساجين لذلك ستحدث حركات تغيير داخلية حسب لائحة قوانين السجن.

وصل ضابط من وحدة الاحتجاز تلك إلى الموقع بقائمة إعادة التوجيه، من المفترض أن تكون إدارة السجن مثل أجهزة المخابرات لما يسمى بالدولة الجزائرية، قد فحصت بعناية ملف كل نزيل وميوله للعنف، الأمر ليس كذلك! فهذه التقنية

العالية والمعايير الصارمة الخاصة بإدارات السجون ذات الحراسة المشددة غائبة بشكل مؤسف.

تتم قراءة القائمة بصوت عالٍ فيترك النزلاء الذين يسمعون أسماؤهم الفناء للمشي في طابور تحت حراسة عشرات الحراس إلى مكانهم الجديد، تم اختيار السجناء بشكل عشوائي دون تدقيق بناءً على التهمة ومدة الحكم فقط.

بعد خمس دقائق من المشي دخلنا مكاننا الجديد وهو عبارة عن قاعة كبيرة تحتوي على ستين سريرا فسيحة وجيدة التهوية لكنها متداعية ومهترئة كباقي المرافق والمباني التي أورثتها فرنسا للمستوطنين الجدد.

من المعروف أن التأثير النفسي للسجن، يومًا بعد يوم وعامًا بعد عام، يُحدث تغييرًا جذريًا في شخصية سجناء قضايا القانون العام، فاعتقدت الطغمة العسكرية لجنرالات انقلاب يناير وحراس عبلة (عنتر سابقًا) انطلاقا من هذا الافتراض أنه يمكنهم تغيير قناعات أولئك الذين تم إجبارهم على الدفاع عن أنفسهم من خلال فرض عقوبات قاسية.

لقد ارتكبوا خطأً فادحًا بإرسال جنودا تم تجنيدهم من عائلات ومناطق مُدقعة الفقر لارتكاب مذابح جماعية في البلدات الصغيرة المتاخمة للمدن الكبرى لهدف غبي يتمثل في تشويه سمعة حفنة من المتمردين المصممين على الدفاع عن أنفسهم بضراوة، خطأ في الحكم على أن الناس سوف يعلمها أفراد الشعب لأطفالهم في المنازل وفي المدرسة وفي جميع التجمعات والجمعيات، ذلك الخطأ الفادح في الحكم من قبل الجنرالين خالد نزار وتوفيق مدين كلّف الشعب الجزائري ما لا يقل عن ثلاثمائة ألف روح راقت إلى بارئها.

قبل نهاية منتصف النهار كنا قد استقرينا في هذه الغرفة الجديدة، أعطينا الأولوية لكبار السن والمعوقين في اختيار السرير والموقع، ثم اتفقنا على قواعد معينة لحياة مشتركة مريحة.

من بين سكان الجزائر البالغ عددهم أربعة وأربعون مليون نسمة لم يعش معظمهم مأساة العشرية السوداء سوى من خلال وسائل الإعلام والدعاية المفبركة على الطريقة الروسية، لا يتواجد سوى مليونان إلى ثلاثة ملايين من يعرفون النسخة الحقيقية للأحداث وهي تلك النسخة التي تحاول المؤسسات التي سيطرت عليها الشرطة السياسية إخفاءها بشكل يائس.

قضينا فترة الظهيرة بأكملها نحاول إعادة بعض البريق إلى هذا المكان الكئيب الذي شهد معاناة آلاف المعتقلين عبر التاريخ.

لقد اخترنا نحن وصالح س.، أماكن بعيدة عن بعضنا البعض فلقد كان يتوجب علينا الاستمرار في تفادي أعين المتطفلين وعدم ترك أي شيء للصدفة.

وامسك نفسك عزيزي القارئ! لأن الأخ صالح س. قد أخبرني وبسرية تامة وكاملة أن عملية الفرار ستتم بعد إطلاق سراحه إذ سيكون الرجل الثاني وراء أروع هروب حدث في التاريخ.

وبالفعل أُطلق سراحه في 25 فبراير 1994 وأصابني الذهول أكثر حين تم اختياري، دون أن أستحق ذلك حقًا، لتولي دوره داخل السجن.

كثير من إخوتنا المواطنين ليس لديهم أدنى فكرة عما يشعر به المرء في السجن فأنت لست في مأمن من الاستفزاز أو التجاوز أو سوء المعاملة.

عرف الحراس في سجن لامبيز، مثل الجميع كذلك، أننا لم نكن سجناء عاديين، البعض اعتبرنا سجناء سياسيين، والبعض الآخر كما حدث أثناء النضال من أجل الاستقلال اختاروا أن ينجزوا مهمة الحركيين وأن يطبّقوا القيود الجسدية والمعنوية التي أوصى بها القضاة المقنّعة للمحاكم الخاصة.

عندما تستيقظ في الصباح بين جدران السجن فأنت لا تعرف أبدًا ما إذا كان يومًا جيدًا أم يومًا سيئًا، عمليات البحث والتفتيش الجسدية المنهجية وتفتيش قاعات الإقامة التي تبررها لوائح الإجراءات الأمنية على الرغم من أنها تخلق شعوراً بالتعسف وسوء المعاملة والتطفل.

لم يكن صباح 23 فبراير 1994 صباحًا جيدًا، وقف حشد من الحراس عند بوابة المجمع الذي كنا محتجزين فيه، كان من المقرر إجراء تفتيش صارم قبل «إفطار الصباح»، أخبرنا الضابط المسؤول عن العملية أن التفتيش سيجري لذلك على الجميع الوقوف أسفل سريره، تم التفتيش الجسدي دون وقوع أي حوادث وغادرنا الغرفة للسماح بتفتيش أمتعتنا الشخصية وموادنا الغذائية.

استغرق البحث داخل الغرفة وقتا طويلا بشكل غير عادي، لاحظ الضابط الذي كان لا يزال واقفا عند المدخل أن صبرنا قد نفد فأمر الحراس بمغادرة الغرفة صارخا: «انتهى وقت البحث، الجميع إلى الخارج» تمامًا مثل عملاء بن عكنون،

ضباط سجن لامبيز يشبهون كثيرا الشيطان لذلك كان من الواضح أنهم سيتركون وراءهم صنيعا استفزازيا لمجرد عدم وجود هدف معين.

من الطبيعي أن تتم عمليات تفتيش من هذا النوع وهذا موجود في جميع المؤسسات العقابية لأن الهدف منها هو ضبط وحجز أي أداة أو مادة ممنوعة

مع احترام قدر الإمكان كرامة السجين، لكن هذا الإجراء البسيط الذي يُمارس بشكل سطحي على السجناء تحوّل، بفضل بعض حراس السجون المعتادين على الخنوع والهوان، إلى حوادث تحرش وإهانات.

كانت شكوكي في محلها فبمجرد دخول السجين الأول إلى الغرفة لاحظ الفوضى العارمة التي تركها المفتشون عمدًا وعلى مرأى من الضابط المسؤول لأنه واحد مارق مثل الآخرين.

الأمر المثير للإعجاب لدى هؤلاء المتمردين الذين وصفوهم ووصموهم بأنهم إرهابيون هو رد فعلهم الفوري المنضبط والمحسوب له لأنّ الحادثة تتطلب قرارًا جماعيًا.

لم يكن يسعنا أمام تلك الفوضى المفتعلة عن قصد سوى المشاهدة فلقد تم إلقاء المراتب والأفرشة على الأرض، وتراكمت بطانياتنا معًا في زاوية وأسرتنا ذات الطوابق مصطفة على طول الجدران.

إن جهل هؤلاء الرجال وانحطاطهم وغدم سعيهم إلى استخدام حواسهم الخمس قد أثّر على رحلة حياتي الشخصية، علاوة على ذلك، فإن هذه الحثالة ليست مهنية تماما فلقد سمحوا لأنفسهم بحرماننا من الضروريات من المواد الغذائية، خلطوا السكر بالملح والحليب المجفف والزيت بالخل، حتى الماء الذي يوفره السجن تم سكبه في الأحواض، إنه فعل غير إنساني تمامًا.

لم يكن بإمكاننا البقاء صامتين أمام حجم الضرر، كان من الضروري التعبير عن سخطنا برفض العودة إلى القاعة وهي بهذه الحال واشتراط حضور أحد أعضاء الإدارة للوقوف على الضرر الذي سبّبه موظفوها.

وبما أننا نتكلم عن السجون فلنتحدث قليلاً عن الطعام الذي يتم تقديمه في سجون ما يسمى بالدولة الجزائرية، يعتقد الكثير من الناس أن ما يتم تقديمه في سجوننا يمكن تشبيهه بالوجبات لكن ذلك غير صحيح، صدقوني ! حتى في سجون الدول الأوروبية، حيث الفساد ضعيف جدا، فالطعام ليس له سمة الوجبات بل طعام بسيط بدون نكهة وهو نفسه سواء للشاب أو المسنّ العجوز.

في الجزائر ومع عمليات الاختلاس والسرقة التي تتم مع الإفلات التام من العقاب تم تخفيض حصص الطعام بنسبة 70٪ تقريبًا.

فوضت الإدارة ضابطًا للاستماع ونقل احتجاجاتنا حتى لا يتكرر هذا النوع من الاستفزاز مرة أخرى، بعد خطاب قصير فيه دعوى للتهدئة إلى حد ما، دعانا إلى العودة نحو القاعة وإعادة الأمور إلى نصابها مرة أخرى وهو ما فعلناه على الفور، كانت الساعة الثالثة ظهرا حين أتممنا إرجاع المقتنيات الشخصية إلى أماكنها كما كانت قبل التفتيش قبل حلول موعد غلق الزنزانات.

عادت الحياة نوعًا ما إلى مسارها الطبيعي وعادت العلاقات بين المعتقلين وموظفي السجون إلى طبيعتها بل وهدأت حتى تاريخ 27 فبراير 1994.

.بمجرد فتح وحدة الإقامة لدينا وبعد المناداة على الأسماء والحصول على الإفطار، طلب منا أحد الضباط وفي يده قائمة أن نصطف مثنى مثنى في منتصف الفناء، كان عليه أن ينادي حوالي 30 اسمًا لمعتقلين يتوجب عليهم تحضير أمتعتهم على الفور، تم اتخاذ إجراء تحويل مساجين انتقامًا لخرق قوانين إدارة المؤسسة، هذا الهراء لا يفهمه أحد سواهم لأنهم هم من اختلقوه.

ولجعل الأمور أسوأ كنت ضمن قائمة التحويل إلى سجن في غرب الجزائر، لقد شعرت بالضيق الشديد، حزنت على نفسي بالتأكيد لكن أكثر ما كان يُحزنني هو نجاح خطة الفرار، فقد كلّفني الأخ صالح. س قبل الإفراج عنه في 25 فبراير أي قبل يومين، بمهمة جديدة داخل السجن.

بعد ما تم نشر أسماء المغادرين عدنا إلى القاعة من أجل جمع أغراضنا والحراس يحثّوننا على الاستعجال فاخترت أسرع طريقة للقيام بذلك حسب تقنيات السجن وهي نشر بطانيتي على الأرض، مثل كل الآخرين، ووضع كل الأشياء التي تخصني في المنتصف، وبنهاياتها الأربعة قمت بربطها على شكل حزمة ورميتها مباشرة على كتفي، تلك الحركة ذكرتني بالجزائر القديمة لأجدادي.

إن معارضة الظلم أو حتى مجرد الاحتجاج عليه له ثمن في المقابل، وها نحن نسير إلى وجهة لا تزال مجهولة، شققنا طريقنا إلى مركز عبور بالقرب من البوابة الرئيسية تحت إشراف الضباط والحراس، خطوات قليلة من الحرية، أود أن أكمل هنا مقولة أنطوان دو سانت إكزوبيري: «إذا كانت الحياة البشرية لا تقدر بثمن، فإننا نتصرف دائمًا كما لو أن شيئًا ما يتجاوز في القيمة الحياة البشرية...» ولكن ماذا؟ الجواب هو الحرية عزيزي أنطوان فعليك أن تخسرها لتعرف قيمتها.

بعد المشي لوقت قصير استقرينا في بيت خشبي صغير قليل الترتيب يكفي لفترة قصيرة.

كان اليوم هو 27 فبراير 1994، قضينا أربعة أيام في مركز العبور، كنا نستعد لإنهاء الأسبوع في نفس المكان لأن اليوم التالي كان الخميس وهو يوم

راحة أسبوعية، وإذا بحافلة مصلحة السجون تتوقف عند مدخل الغرفة حوالي الساعة 4 صباحًا.

بعد ساعتين غادرنا سجن لامبيز تحت حراسة من الدرك الذين كانوا يتناقلون المهمة من فرقة لأخرى، لقد كانوا دركيين فخورين بهذه البطولة لكنها لم تكن كذلك، أولئك الدركيون وضباط الشرطة والجنود الذين من المفروض أن يكون واجبهم خدمة الوطن مساندون لجنرالات السلطة ويدعمونهم بأجسادهم وأرواحهم، إن بطولة «منقذي الجمهورية» تُداس اليوم في كل الشوارع الجزائرية وفي كل العواصم الأوروبية، لقد بلغتم أنتم وسادتكم قمة الذل والمهانة، الشعب يصدح ويردد بصوت عال شعارات: «المافيا العسكرية»، «المخابرات الإرهابية»، «الجنرالات إلى القمامة»....لقد دفنت بطولاتك الزائفة وستدفن معها كذلك لأنه مصيرك على مر التاريخ ولطالما كان الأمر كذلك دائمًا.

اصطحبنا موظفو السجن المرافقون لنا إلى الحافلة التي كانت من الداخل ومقاعدها مصنوعة من المعدن، قاموا بتقييد أيدينا إلى المقاعد بدون وحشية أو عنف لتنطلق الحافلة نحو وجهة جديدة ومجهولة، إذا كان ما علمته من عميد السجناء صحيحًا، وهو سجين من العاصمة محكوم عليه بالسجن المؤبد، فإن وجهتنا ستكون الشلف لأنه في اليوم السابق تمت عملية نقل إلى البرواقية في نفس التوقيت.

لأول مرة كنت أرغب في البقاء في لامبيز، هو سجن قذر وكئيب يتعرض فيه البشر لظروف مروعة ولكنه يوفر فرصة لرؤية الهواء الطلق والشعور بالتحكم

في الذات ومصيرها، لطالما آمنت وما زلت أؤمن أن أعيش هذه الحياة القصيرة بشرف أفضل من عيش حياة طويلة جدًا كالحيوان -أكرمكم الله-.

إن كانت وجهتنا هي سجن الشلف وهو سجن سيء السمعة فالمسافة لن تقل عن 600 كيلومتر، إذا ما حسبنا السرعة المفروضة على السائق بالإضافة إلى وقت تغيير الحراسة المرافقة فإننا لن نصل إلى الهدف إلا بعد حلول الظلام وهو ما يعادل من اثني عشر إلى أربع عشرة ساعة من العذاب الإضافي.

الشلف،
سجن تحت الصفر

بعد يوم طويل من السفر وصلنا حوالي الساعة السابعة مساءً إلى سجن الشلف وقد جفت الدماء في عروقنا وأضعفنا الإرهاق من الرحلة تمامًا، الترحيب كان احترافيا للغاية بل ودودًا بعض الشيء فأنا شخصياً اندهشت من ذلك السلوك فعلى ما بدا، كان الحراس غير مهتمين بوصولنا.

بدون الإكثار من الإجراءات الإدارية أو البروتوكولات وبسرعة كبيرة تم توزيعنا إلى مجموعات من خمسة أفراد على ست زنزانات لتلك الليلة كما أخبرونا، كان اليوم 28 رمضان الموافق لـ 3 مارس 1994.

في ذلك المساء، بينما كنا نتذوق الشوربة التي قدمها لنا إخواننا السجناء، لم تتوقف خطة الفرار التي تركناها وراءنا عن شغل بالي فمن المؤسف أن فكرة إذلال الدولة غير الشرعية لم تكن مكتوبة في قدرنا.

في وقت مبكر من اليوم التالي، قبل وصول فريق حراس النهار، انتشرت شائعة عن عملية فرار مذهلة من سجن لامبيز، أكثر من ألف شاب جزائري ينتمون إلى

تلك الفئة الاجتماعية والايديولوجية التي قرر الجيش إبادتها، استعادوا حريتهم لأنه لم يكن لديهم بديل آخر سوى السير على خطى آبائهم.

أراد العديد من المفكرّين والمتعلّمين أن ينسبوا هذا الهروب إلى عبقرية دائرة الاستعلام والأمن حيث حاول صحفيو النظام عبثًا نشر دعاية رسمية على أنّه كان إجراء استراتيجي لحفظ ماء الوجه في مواجهة الرأي العام الوطني والدولي.

لعبت هذه الصحافة التي أعيدت هيكلتها تحت إشراف الجيش منذ وصول من يُطلق عليهم «جيش الحدود» إلى السلطة دورًا رئيسيًا في تقييد المجتمع الجزائري، سوف يعلم التاريخ وستتطرق الكتب المدرسية إلى جميع الجرائم التي لا تخضع للتقادم في الجزائر الجديدة، سيتم الكشف عن الأسماء والوظائف والمسؤوليات يوما ما للشعب.

كنت أشعر بالغضب في أعماقي لأنني فوتّ عملية القرن ببضع ساعات، لكن حين فكرت في الأمر فإن التحدّي كان هبة كبيرة من السماء وفي جميع الأحوال أنا سعيد لأي شخص أراد أن يأخذ مصيره بيده سواء كانوا في الجبال أو خارج الوطن لأنّ ذلك غير مهم ما دامت طينة الرجال من نفس المادة التي صُنع منها العم سعيد. ت صديق طفولتي.

عنوان هذا الفصل «الشلف، سجن تحت الصفر»، ربما تتساءلون عن سبب اختيار عنوان مماثل وهل هو مجرّد أسطورة أم حقيقة؟

سجن الشلف هو مؤسسة عقابية تابعة لإدارة السجون طاقتها الاستيعابية صغيرة نسبيًا، لفترة طويلة لم تكن قادرة على استيعاب المحتجزين في قضايا

القانون العام في ظروف مقبولة ناهيك عن التدفق المستمر للوافدين الجدد الذين نحكم عليهم المحاكم الخاصة.

بمجموعتنا التي جاءت من لامبيز تكيفت بسرعة مع روتين المؤسسة بفضل الترحيب الحار والدعم الصادق لإخواننا من الغرب، إذ سيكون من الظلم عدم تسليط الضوء على صدق الأخوّة والضيافة التي لا مثيل لها في هذه المنطقة.

مرت الأشهر الأولى في ظل أفضل الظروف الممكنة لمعتقلي المحاكم الخاصة، حيث كانت الحرية شبه كاملة داخل الجدران متوّجة بغياب تام وغير معقول للقيود أو سوء المعاملة.

وضع مثالي حيث كانت ممارسة الرياضة مسموحة فكان يتم تنظيم مباريات لكرة القدم، وحتى أوقات الاستراحة في الفناء كانت طويلة جدًا، كانت العلاقة مع الحارس المسؤول تسير على ما يرام وهو رجل اسمه يوسف كان يتمتّع بروح طيبة متعاونة.

لكّن دوام الحال من المحال وحين يكون كل شيء على ما يرام فلابدّ من تغيّر الأحوال.

الحياة في ملاحق السجن:

كان متوقعا أنه في ظل ظروف النزاع المسلح لا يمكن أن تستمر فترة الاسترخاء هذه طويلا، عاجلاً أم آجلاً كان وقوع حادث على الجبهة السياسية العسكرية من شأنه أن يغير الوضع جذريًا.

لمدة ستة أشهر لم نعش أي تجاوز في هذا السجن الذي كانت له سمعة سيئة للغاية في عالم السجون.

في شهر تشرين الأول 1994، حدث أمر مؤسف للغاية وهو اغتيال الحارس المسؤول يوسف فتم وضع جسده ورأسه مقطوعًا عند المدخل الرئيسي للموظفين، هذا الفعل المشين المشابه للاستفزاز أدى إلى تحول تام في ظروف الاحتجاز.

بدأت حركة كبيرة بمجرد انتهاء النداء على الأسماء بين مركز التوقيف والملحق وهما أماكن إقامة السجناء الذين يحاكمهم رجال يرتدون أقنعة، بعد انتهاء عمليات إعادة التوزيع وإغلاق الزنزانات، شرعت الإدارة في وضع جدول زمني لتدابير التقييد الجسدي والقيود المادية.

في غضون ذلك أطلق الحراس، وهم تلك البذرة السيئة التي تنمو في كل مكان، العنان لغريزة الانتقام فتعرض ما يقارب الأربعمائة معتقل للضرب والإهانة والبصق، حتى أن البعض تم تجريدهم من ملابسهم وانهالوا عليهم بالركلات، أما صغار السن ما بين التاسعة عشرة والثانية والعشرين فكانوا يتعرضون لاعتداءات جنسية.

المادة الأولى في اللوائح الجديدة من الإجراءات الانتقامية المتشدّدة هي منع القرآن في جميع مرافق السجون فأصبحت أي قراءة أو كتابة إسلامية تنجرّ عنها عقوبة في سجن الشلف، تم سحب جميع مصاحفنا وكراريس الكتابة، أي سورة أو أي آية قرآنية منسوخة على الورق يعاقب عليها باثني عشر جلدة على باطن القدمين كما أن جميع الرموز التي تشير إلى الإسلام يعاقب عليها القانون.

إضافة إلى الحظر المفروض على الكتاب القرآني نجد مجموعة من القيود الأخرى، مثل تقليل وقت النزهة في الفناء إلى أبسط أشكاله أي ساعة واحدة في اليوم صباحا في الأسبوع الأول ومساءًا في الأسبوع الثاني، يجري تغيير زنزانات النزلاء بين المواقع كل أسبوع، التمارين الرياضية محظورة، زاد عدد عمليات تفتيش الغرف والتفتيش الجسدي والأدهى من ذلك هو أن يتبعها عقاب جماعي وكذا سوء المعاملة وإذلال النزلاء الذين يتم اختيارهم عشوائيًا.

لقد أصبحت الاستفزازات نصيبنا اليومي حيث لا يمر يوم ولا نسمع فيه أن أحدًا منا قد تعرض لاعتداء وحشي من قبل حشرات السجن.

أحد المواقع المستخدمة في حبس المعتقلين الذين حوكموا في محاكم خاصة تُعرف باسم الملاحق (Bis) لم يكن في الأصل مخصصًا لهذا الغرض بل كان مستودعات مخصصة لأنشطة خاصة بالطيران وتم تحويلها في هذه الظروف الخاصة إلى محتشدات مؤقتة، يحتوي المستودع على ثماني غرف تتسع لأكثر من أربعين شخصًا من هذه الفئة من الجزائريين الذين أراد العسكر إبادتهم.

على عكس المؤسسات العقابية الأخرى حيث تستوفي الغرف الجماعية معايير دولية معينة منذ بداية القرن الماضي، فإن الملاحق ليست سوى نتاج ترتيب مؤقت يهدف إلى استيعاب الاكتظاظ الكبير.

ترتفع الجدران بثمانية أمتار تعلوها ثلاثة أمتار من القضبان المعدنية وزجاج بلاستيكي شفاف قاسٍ وصلب مما يسمح بدخول ضوء النهار وإضاءة غرف الاعتقال، علاوة على ذلك يتم استخدام ألواح الحديد المموج المثبتة على إطار معدني ثقيل على شكل سقف للغرف.

الكثير من هذه المستودعات لم تصمد أمام مرور الزمن، لم تعرف هذه المباني أية صيانة أو ترميم أبدًا، وعند وصولنا كانت في حالة متقدمة من الإهمال، عدد كبير من قطع السقف والحديد قد تحطم أو تطاير مع الرياح تاركًا بذلك الظروف المناخية لولاية الشلف تتسلّل إلى حياة السجناء الصعبة للغاية أصلاً أي المطر والرياح وبرد الشتاء الذي غالبا ما تكون درجاته تحت الصفر وحرارة الصيف الحارقة التي تصل إلى 42 درجة، كل هذا يجعل المؤسسة ترقى إلى مستوى سمعتها الشريرة بأنها «سجن تحت الصفر».

تحتوي الغرف على مرحاضين وصنبورين للمياه غير صالحة للشرب، في معظم الأوقات هناك أكثر من أربعين شخصًا نتقاسم مساحة بها 24 بلاطة فقط أو أقل من متر مربع واحد لكل نزيل مع بطانيتين لاستعمالها في النوم.

في أذهان الجزائريين يمكن أن يكون الطعام المعد في مطابخ السجون مشابها للأطباق المقدمة إلى المجندين في الخدمة الوطنية، بعد تجربتي لكلتا الحالتين أستطيع أن أؤكّد لكم أن طعام الثكنات، على الرغم من كونه مثيرًا للاشمئزاز، يُعدّ صالحًا للأكل من قبل البشر.

دون التطرق لنوعية الطعام المثيرة للاشمئزاز، تم تخفيض حصصنا في الطعام إلى الحد الأدنى بعد حادثة وفاة الحارس المسؤول، يحصل كل فرد على نصف كوب من القهوة وقطعة صغيرة من الخبز على الإفطار، في الغداء قد نجد على سبيل المثال اثنتي عشرة حبة لوبيا أو ثلاثين من العدس وكوبًا من حسائها ورغيفًا من الخبز، في العشاء يُقدّمون لنا أي شيء يتم طهيه وبنفس الكمية.

لم يكن موظفو السجن المعروفين بانعدام الأخلاق والوازع الإنساني مختلفين في الواقع عن زبانية مركز عبلة (عنتر سابقًا) في سجل العنف والسادية، فقد تم تسليط جميع أشكال العقاب والتعذيب بشكل جماعي أو فردي يوميا، من ذلك الكابوس الذي عشته خلال عدّة سنوات سأروي لكم بعضًا ممّا مررنا به لعرض جزء صغير من مسلسل الإذلال والإهانة، أين كان أبسط دليل أو فعل يرتبط بالإسلام يؤدّي إلى عقاب فوري.

في أحد الأيام وبعد المناداة على أسمائنا ككلّ صباح، لمح أحد الحراس أثناء الفحص الروتيني لغرفتنا قطعة قماش كقبعة كان يستخدمها سجين شاب يبلغ من العمر عشرين عامًا لتغطية رأسه من البرد الذي كان ينسكب من السقف المهترئ فشبّهها بالعرّاقيّة (غطاء إسلامي للرأس) فسُحبت إلى المكان الذي يتم فيه تنفيذ العقوبات وتلقيت عشرات الجلدات بخيط كابل الهوائي على باطن قدمي.

في ذلك اليوم كنا ستة سجناء تلقوا في الصباح الباكر جرعة من التعذيب، كان الحراس معظمهم من الريف، يبتكرون أصنافا من العقوبات لتطبيقها على المعتقلين الذين أضعفتهم أصلاً الظروف اللا إنسانية التي يعيشونها، لابدّ أن معنويات المساجين كانت قوية بما أنّه لم تخرج من هؤلاء الرجال العاديين حتى ذلك الحين غرائز مخيفة.

لم يظن أحد أن سجن الشلف، بالنظر إلى الطابع الودود والمضياف والدافئ لأبناء المنطقة، يمكن أن يكون أسوأ سجن في البلاد، سجن له سجّل أسود من الانتهاكات المنهجية على يد حراس نشروا الرعب والابتزاز بين نزلاء السجون الخاضعين لسلطتهم.

يمكنني الاعتراف بأنّ أكثر اللحظات إثارة للاشمئزاز في حياتي عشتُها في سجن الشلف وسأخبركم عن سبب ذلك.

في اليوم الذي قُتل فيه أمير الجماعة الإسلامية المسلحة الراحل شريف قوسمي المعروف باسم أبو عبد الله أحمد، في كمين وقع في 26 تشرين الأول 1994 إذا كنت أتذكر بشكل صحيح، تمّ القيام بتفتيش عام في الزنازين والغرف بشكل مفاجئ.

فوجئنا بصفارات الحراس الصارخة تُبلغنا بمغادرة المكان على الفور فلم تعد لدينا إمكانية إخفاء أي شيء وتركنا القاعات على عجلة من أمرنا متّبعين توجيهات الحراس لنجد أنفسنا في ممر واسع وطويل.

كانت دهشتنا كبيرة حين اكتشفنا أن جميع موظفي السجن متورطون في عملية الإذلال الجماعيّة، صرخ رئيس المعتقل وهو رجل يُدعى «زنغا» ومساعده «العهد» بفضاضة شديدة ليأمرنا بتجريد أنفسنا من الملابس لنبقى عراة تمامًا وأن نواجه الحائط مع رفع الأيدي ووضعها عالياً.

مشهد حقير! لا يلجأ إليه سوى البائسون، تخيل معي ما يقارب مائتي بُنية شديدة وقوية مكشوفة مثل حيوانات المذبح.

كان الجو بارد نسبيا في ولاية الشلف في ذلك الوقت من العام فبقينا نرتجف في تلك الوضعية لمدة أربعين دقيقة على الأقل والحراس يجولون ذهابًا وإيابًا متصنّعين للإثارة الجنسية فيلمسوننا بأيديهم ويتحرشون بمداعبة أرداف الأصغر سنّا من بيننا.

في أحد الأيام، قام أحد الشباب بالنداء إلى صلاة المغرب بأداء الأذان بصوت مؤثر جدًا وكان أحد الحراس يراقبه من أعلى مركز المراقبة الخاص به، كنا قد لاحظنا وجوده لكن ذلك كان أمرا عاديا فلطالما كان الحراس يتوقفون للاستماع إلى الأذان ومشاهدتنا نؤدي صلاة الجماعة.

لكن في اليوم الموالي بعد المناداة على الأسماء تم استدعاء ثلاثة من إخواننا الأشداء المعروفين في السجن بأنهم رجال أقوياء، ومعهم الشاب الذي أدى الأذان بدون أي ذريعة أو سبب معقول، تلقى الإخوان الثلاث عقابا باستخدام كابل مضفر مما ترك علامات عميقة على أجسادهم ووجوههم، بينما لم يعاني الشاب من أي وحشية بل عاد بدموع كبيرة في عينيه وغضب لا يوصف من العجز، قام أولئك السجانون بتجريده من ملابسه كليًا ووضعوا يديه على الحائط، وقاموا بلمسه بالأصابع واليدين وحتى بمعداتهم وهم يضربونه بعنف على أردافه طوال عشرين دقيقة في حضور العديد من زملائهم الذين جاؤوا للاستمتاع.

في فصل الشتاء وفي هذا السجن المكشوف على الهواء الطلق يكون البرد قارصًا وقاسيا دون وسيلة للتدفئة، حتى البطانيات وملابسنا لم تستطع مجابهته، مع ندرة الغذاء وخفض الحصص الغذائية كنا نتدبر حالنا بوسائلنا الخاصة، فنحن الذين نأتي من بعيد نحصل على المؤن من متجر السجن أما إخواننا من الغرب فكانوا يتحصلون على القفف بانتظام من مواعيد الزيارة فكان تبادل المساعدة فيما بيننا تساعدنا على مقاومة الظروف بشكل أفضل.

عندما يحل فصل الصيف نصبح عاجزين أمام الحرارة التي كانت تتجاوز داخل الغرف في كثير من الأحيان 45 درجة تحت ذلك السقف المعدني.

كان النزيل فضيل ب.، يعاني من أمراض باطنية مزمنة وتعرّض لصعوبة هائلة في التنفس بسبب حرارة الجوّ، لم يكن يستطعِ الوقوف ساكناً لأنه يحسّ بالاختناق فنبهنا السجّانين الذين لم يأبهوا لأمره تماماً.

في حوالي الساعة 9:00 من صباح ذلك اليوم استلقى أخونا فضيل ب.، على فراشه ونطق الشهادتين ليغادر بهدوء السجن والحياة إلى الأبد.

حتى لا ننسى همجية ووحشية رجال هذا النظام ومؤسساته، تم نقل شقيقنا فضيل ب.، إلى المستوصف وكأنهم يقومون بنقل أكياس القمامة، أتى نزيل يعمل ممرضًا إلى غرفتنا برفقة اثنين من الحراس وقام بسحب الجثة من الذراعين ووضعها على شكل حزمة فوق كتفه وحملها نحو المستوصف دون مبالاة ولا إنسانية.

الحياة في مركز الاعتقال:

الحياة هنا ليست مختلفة بل هي نوع من التكرار المرير، الفرق الوحيد هو أن هذا الموقع يحتوي على زنزانات ضيقة مساحتها مترين على ثلاثة أمتار مجهزة بركن لقضاء الحاجة، والتي من المفترض أن تستقبل نزيلين فقط وفقًا للمعايير المتفق عليها دون مراتب وأسرّة.

وبغض النظر عن أساسيات الإقامة في الزنزانة، فقد تم حشرنا في مجموعات من أربعة وأحيانًا خمسة داخل الزنزانة الواحدة مع ساعة واحدة فقط للاستراحة في اليوم وسوء معاملة لثلاث وعشرين ساعة.

ومثلما هي معاناة نزلاء الملاحق مع سياسة التعنيف والعقاب الجسدي، عانى أولئك الموجودون في مركز الاعتقال من نفس الكابوس، إن لم يكن أكثر، فكانوا عُرضة لانتقام دموي ضدهم قد تم التخطيط له وتنفيذه في غياهب عتمة الزنازين.

أريد أن أستذكر هنا واحدا آخر من إخواننا وهو محمد بوراس من غليزان، حفيد عائلة ثورية عريقة وسليل المجاهد الوطني محمد بوراس أحد رواد الكشافة الإسلامية الجزائرية.

في البداية التقيت به في الملاحق وكان في حالة جيدة تجسدت في قوة جسدية وعقلية عالية وهي ما يلزم للخروج من هذه المحنة الصعبة للغاية بصحة وسلام، حُكم عليه بالسجن اثني عشر عامًا وهو طريق طويل جدًا لقطعه في هذه الظروف.

كنّا نرى بعضنا البعض كل يوم طيلة ستة أشهر، تعاطف معي كوني عاصميًا تائها وسط إخوته من الغرب، وما ربطه بي هو شعوره بالحنين لأنه قضى جزءًا من طفولته في الجزائر العاصمة.

تسبب نقلي إلى مركز الاعتقال في الاجتماع به للمرة الثانية، كان لا يزال بصحة جيدة في الظاهر لكنه كان يشكو كثيرا من ألم في ساقه اليمنى.

لا يوجد في نظام السجون الجزائرية في رأيي، قوانين تضمن نفس نوعية الرعاية الصحية بين المحتجزين وبقية السكان، لا أعرف ما إذا كان هناك أي قانون من هذا القبيل، لكن في الواقع ومع هؤلاء البلطجية الذين يحكموننا فإن قضاء العقوبة هو أن يكون المرء سجينًا في المرتبة الأولى ولا يمكنه أن يكون مريضا، لذلك كان من الضروري أن يموت محمد بوراس للمطالبة بالنظر إلى إمكانية أن يكون السجين مريضا ومحتاجا إلى رعاية.

مرت الأيام واشتد الألم عليه أكثر فأكثر، كان موضع الألم في أعلى عظم ساقه و لم يعد من الممكن تحمله، لم يعد الرجل قادرًا على النوم و لم تعد الأدوية الموصوفة له تُعطي أيّ تأثير عليه، قرر أخيرًا طبيب السجن كإنسان، إرساله إلى المستشفى.

لم أره منذ ذلك الحين، لكنني علمت من زملائي أنه احتُجز في مستشفى الشلف وبُترت ساقه.

هذا الإهمال الطبي هو ممارسة شائعة في السجون، خاصة خلال فترة الاكتظاظ التي عايشناها.

وبما أن المصائب لا تأتي بمفردها ومع ظروف الاحتجاز المروعة، تدهورت صحة أخينا محمد بوراس يوما بعد يوم وتم تشخيص حالته بأنه مصاب بتورمات خطيرة لا حلول لها ولا علاج لها.

بعد فترة وجيزة من لقائي به، وفي أخر مرة خرج لقاعة استقبال الزيارات، كان لا يبقى منه سوى حطام بشري يتحرك بعكازة يدوية الصنع، أصبحت أيامه معدودة و لم يمر وقت طويل حتى وصلنا خبر وفاته بواسطة الحراس المنحدرين من منطقته في غليزان.

هؤلاء الحراس أنفسهم الذين ينحدر بعضهم من الرمكة، هم الذين أخبروا المعتقلين المقربين منهم بملابسات المجزرة ومرتكبيها وعدد الضحايا والتي فاق بكثير الأرقام التي أعلنها النظام العسكري، يتذكر أهل الرمكة الجناة والمسؤولين، ولا شكّ لدي في أنهم سيحترمون القسم بالإدلاء بشهاداتهم وكشف المذنبين بمجرد استيفاء الظروف المناسبة.

للعودة في هذا السياق إلى حياة السجن في زنزانات مركز الاعتقال، حيث يسود الاكتظاظ وانعدام النظافة والهواء العفن ونُدرة الطعام، يعاني العديد من النزلاء بسبب درجات الحرارة المنخفضة جدًا في الشتاء والمرتفعة جدًا في

الصيف.. ومن هنا تأتي حقيقة أن سجن الشلف يأخذ سمعته السيئة من الذين سبقونا إليه والمتمثلة في ظروف الاعتقال دون الصفر.

يتواصل العبء اليومي للقيود الجسدية بمتغيرات جديدة وتجاوزات دائمة بإمضاء رونجاس العسكر تدوس على كرامة وإنسانية المحتجز، على سبيل المثال جُرد خمسة معتقلين من متعلقاتهم الشخصية حتى ملابسهم الداخلية كعقوبة لهم ووُضعوا معًا في زنزانة واحدة لمدة أسبوع، لم يكن لدى المساكين سوى أيديهم لتغطية عوراتهم أمام بعضهم البعض، هل يمكنك أن تتخيل كيف يمكن لهؤلاء الرجال القيام بصلواتهم وواجباتهم الدينية؟

في كل صباح وفي كلا موقعي الاعتقال يتم جلد المعتقلين لحيازتهم آيات قرآنية مكتوبة على قطعة من الورق، هذا لم يمنعنا من الكتابة وإعادة الكتابة من ذاكرتنا لكل من لم يحفظ القرآن كاملاً.

في بداية فترة الاعتقال لم يحفظ القرآن بالكامل سوى عشرة معتقلين، بعد عامين من مصادرة القرآن وحرماننا منه ارتفع العدد بحمد الله إلى أكثر من مائة شخص.

ومن المفارقات الكثيرة تلك الزيارات التي كانت تقوم بها والدة مدير المؤسسة الفاسد حتى النخاع، في كل يوم عيد فكانت تحثه على معاملتنا بشكل جيد، لأنها لم تكن لديها أي فكرة عن مدى وحشية الحيوان الذي ولدته وربته.

ومع ذلك، فقد عشت ما يقارب الأربع سنوات في هذا الجحيم تحت الصفر، باستثناء حالات الغياب المتقطعة والقسرية التي أفضل عدم التطرق إليها في هذه

المذكرات، لقد نجوت في خفاءٍ تام، نجوت كوني أكثر المطلوبين في السجن، خلال فترة إقامتي بأكملها بشكل فردي لم أتعرض لمعاملة وحشية أو اعتداء إلا بضع مرات يمكن حسابها على أصابع يد واحدة، على الرغم من أنّه ومنذ الأيام الأولى، كان من الضروري تحديد كل العاصميين، وخاصة محور القبة –باب الواد–، فقد كان السؤال: «من أين أنت؟» يُتداول طوال الوقت وفي أي زمان ومكان.

كشف بعض شباب الكاليتوس والحراش عن أنفسهم بسذاجة شديدة فدفعوا ثمن ذلك، رغم أن خلفيتهم لم تكن مطلوبة، واحد منهم وهو مراد م. معروف عنه أنه شاب متهور، كان يتعرض للضرب المبرح مع كل حركة يقوم بها وفي كلّ تفتيش.

من ناحيتي وبما أنني كنت أعرف التداعيات المحتملة، اخترت عدم الكشف عن هويتي وعدم إظهار أي اهتمام فكنت أرد في كل مرة وبنفس رباطة الجأش أنني أتيت من تيزي وزو، كان هذا الرد يذهل الحراس الذين كانوا يتساءلون كيف يمكن أن يكون أحد القبائليين من بين الإرهابيين فكنت أقدم لهم دائما تفسيراً معقولاً ومقنعاً وبالتالي أصبح ذلك «جواز سفري الأمني»، كان جميع السجناء يعرفونني لكن لم يقم أي أحد بالوشاية بي، وكثيرا ما كنت أسمع أحاديث حول ما تناقلته وسائل الإعلام الدعائية للجنرالات «منقذي الجمهورية» حول تفجيرات العاصمة كما كانوا يشيرون إلى اسمي في مناقشاتهم وفي القضية التي أُدنت فيها.

كانوا يختارون من مساجين قضايا القانون العام أقذرهم وأكثرهم فسادًا ممن يعتبرونهم بلا أخلاق أو وازع ديني لزرعهم معنا في زنزاناتنا على أمل كسر تماسكنا حسب تفكيرهم، إضافة إلى الحصول على عيون وآذان واشية، لم تكن الطريقة ناجحة بل استطعنا تبني أولئك الأفراد على الفور وقدمنا لهم الكثير من التنازلات حتى يشعروا بالراحة بيننا، مثل إمكانية اختيار مكان النوم ومن يجاورهم، ومشاركة طعامنا معهم، أو الانعزال في زاوية خاصة بهم تعطي ترجمتها بالفرنسي: الحفاظ على القُربي الخاص بهم (كوخ صغير).

نظرًا لقلة عددهم ووضعهم الاجتماعي الحرج كان الاختيار بالنسبة لهم سهلاً لأنهم سيستفيدون من الاندماج في المهجع الكبير، أبلغ الحراس الجلادون الهمجيون إدارتهم أنّ سجناء الحق العام المُرسلون إلى مهاجع الملاحق قد تغيروا بشكل جذري من حيث النظافة والسلوك وحتى أنهم أصبحوا يواظبون على أداء الصلوات بانتظام بما في ذلك صلاة الفجر.

هذا التغيير غير المتوقع لم يكن ضمن خطط السجانين فتمت إعادتهم إلى مهاجعهم الأصليّة التي غادروها قبل عشرة أيام.

تعتبر التغييرات في توزيع المساجين على الزنزانات في مركز الاعتقال أمرًا شائعًا للغاية، كما أنها توفر ميزة القدرة على مقابلة أشخاص جيدين بشكل متكتّم، خلال إحدى تلك التنقّلات قابلت نزيلًا من باريغو، المحمدية الآن، وأخبرني عن الفظائع التي تعرض لها زميلي في الزنزانة على يد حراس المخابرات، الرجل في حدّ ذاته كان يُدعى أحمد ب.، رفض التحدث عن ذلك ومحاوري لم يكن على اطلاع جيد، فظللت أحاول التقرّب من أحمد ب.، علّه يروي

القليل لكن كان الأمر محسوما بالنسبة له: لم يعد بإمكانه أن يعيش تلك المشاهد مرة أخرى وروايتها، لأنّ ذلك سيجعله يسترجعها مرارًا وتكرارًا فاكتشفت من خلال كلماته حجم الإذلال الذي عاشه وعمق الجرح الذي لن يندمل إلاّ بوفاته.

الجانب السلبي في هذه الزنازين الضيقة هو أننا نبقى طوال الوقت تحت أعين ومسامع الضباط أثناء دورياتهم وبالتالي يتمكنون في كل مرة من الإمساك بقطعة من الورق في متناول أيدينا لحفظ القرآن، أنيسنا في هذه الأماكن البالية والمظلمة، فيأتينا العقاب، كان من المفروض كتابة عبارة «القرآن حرام في سجن الشلف» على لافتة مدخل المعتقل.

لقد أدى تواتر وارتفاع سوء المعاملة إلى تحويل مكان الاحتجاز إلى مكان للقمع المنهجي، فكل تلك التجاوزات والاعتداءات لا يمكن حدوثها إلا بموافقة إدارة السجن، ربما بالنظر إلى أن هذه الفئة من الأشخاص تمثل خطرًا على سلطة العسكر حتى ولو كانوا في الحجز.

قبل أن أطوي هذا الفصل، سأذكر ما فعله حارسين، وهما: عز الدين من غليزان، والمغروس من الشلف، خلال عملية تفتيش قبل حملة القمع حيث قام الأول عن عمد بركل مصحف القرآن الكريم ليقع داخل المرحاض، والثاني كان يقترب من البوابة ليصيح بكلمات بذيئة وجمل استفزازية خلال صلاتنا المسائية الجماعية وأتذكر أنني سمعته يقول: «لا فائدة للصلاة في الليل لأنّ الرب نام منذ مدّة».

نازية أم عنترية

في هذا الفصل، سأتحدث عن الخزي والإذلال اللذين عانى منهما المواطنون ضحايا الظلم والاستبداد، وبحكم تجربتي الشخصية لم يعد بإمكاني تحمل أن يتم دفن ونسيان معاناة الآخرين.

هناك الكثير من الرجال الذين عاشوا مأساتهم بعيدا عن مجرى الحياة وتجرّعوا مرارة المعاناة بين أربعة جدران وخارجها في وحدة تامّة وصمت قاتل دون أن ينبسوا ببنت شفة مستسلمين لمصيرهم.

أعتقد أن الوقت قد حان لإعادة سرد تلك الأحداث وصياغتها في الحاضر لإدانة الجناة، والأهم من ذلك إعطاء الضحايا إمكانية إيجاد سلام داخلي.

أود أن أتحدث إليكم بإيجاز عن بعض الحالات التي ستفضح فظاعة هذه الأجهزة السرية، والتي يتمثل دورها الرئيسي في القضاء على تطلعات الشعب إلى الحرية والمموّلة سنويًا بسبائك من الذهب الخالص الممكن تسويقها في ساحة بورسعيد -السكوار-.

الهليكوبتر

شقيقنا أحمد ب.، من الغرب الجزائري، رجل مثقف وأستاذ ناشط وأحد إطارات الجبهة الإسلامية للإنقاذ، تمّ توقيفه أثناء اندلاع موجة اعتقالات المسؤولين في الحزب وهو ممتاز في التفسير النحوي واللغوي للآيات القرآنية.

على الرغم من الطابع المتحفظ والمحترم للرجل، إلا أن ما مرّ به من شتى ألوان العذاب كان على لسان جميع المساجين السياسيين.

لم يعد يروي ما حدث له لأي شخص بعد الآن فكان علي أن أجد أحد رفاقه في ما مرّ به من محن ليكون مصدرا موثوقا للقصة التي تثير الكثير من التعاطف الصادق وتُفيض مزيجا من مشاعر الشفقة والتراحم.

أعادتني قصة محاوري إلى أكثر من ستين عامًا إلى الوراء فراودتني ومضات من حقبة الجزائر الفرنسية، وبالضبط عندما أُلقي الجزائريون أحياء من مروحيات حلقت فوق البحر الأبيض المتوسط.

الطغيان لا حدود له ولا إقليم أيضًا، أول مثال على ذلك ما فعلته فرنسا المستعمرة مع الجزائريين، الجنرال فرانكو مع الانفصاليين حيث يُشتبه أن المفقودين قد تم رميهم في البحر، بينوشيه وفرق الموت التابعة له في الشيلي حيث تم الاعتراف بأن المفقودين قد ألقي بهم في البحر عن طريق أسراب الموت التابعة له في الأرجنتين.

تم توثيق الحالة التي يتم فيها إلقاء العديد من المواطنين من الطائرات في المحيط الأطلسي ونهر ريو دي لا بلاتا وهم يعتبرون حتى يومنا هذا في عداد المفقودين.

كان الأخ أحمد ب.، كرجل مثقف مطلعا على المؤلفات التي تتكلم عن ظاهرة الاختفاء القسري على يد الأنظمة العسكرية في جميع بقاع الكرة الأرضية، نجد أن أفراد الجيش أكثر ضررًا من منفعتهم لأنّهم يكلّفون الكثير ولا يُجدون نفعا، هذه الحقيقة ولّدت لديهم مخاوف مروعة.

تمّ نقل الأخ أحمد على متن طائرة هليكوبتر متوفرة لخدمة كتائب دائرة الاستعلام والأمن، وتم تقييده من قدميه بحبل طويل وتقييد يديه إلى المقعد، انتظروا أن ترتفع المروحية وتختفي عن أنظار أي مراقب ثمّ أطلق الجبناء يديه ودفعوه ببطء عبر الباب المنزلق ليبقى معلقًا في الهواء، إن الرجل الذي يتعرض للتعذيب بهذه الطريقة ليس محاربًا أفغانيًا سابقا أو رجل عصابة متشدد ولئيم، إنه رب أسرة بسيط مسالم وغير مؤذٍ وضعيف جسديًا، على ماذا نلومه؟ حيازته للأسلحة؟ تواصل مع الأجانب؟ تشكيل جماعة مسلحة؟

لا شيء من كلّ ذلك، ربما خطاب مناهض للديكتاتورية أو استقبال وضيافة نشطاء من الجزائر العاصمة، لا شيء يبرر طريقتك في التعذيب بواسطة الإلقاء من الهليكوبتر العزيزة على أسلافك الفرنسيين، لا شيء يسمح لك بتعليق جزائري فخور وذو كرامة من الأقدام من طائرة مروحية أثناء الطيران مع التهديد بإلقائه في البحر أو في جبال الأطلس التلّي، يمكنني أن أؤكد لكم أنهم منذ ذلك الحين دمروا حياته وصحته ومعنوياته.

وحش الأوراس

إذا كنتم تتذكرون، كنت قد ذكرت في بداية هذه المذكرات فيلا أو عرين يأوي شبابًا موجهًا للعمل في أجهزة المخابرات كما قيل لنا في ذلك الوقت،

شاءت الظروف في نهاية عام 1996، أن أجد نفسي أمام ابن شرعي لضابط صف كبير تم تدريبه في فيلا /عرين الشيطان أخرى تقع على مرتفعات الأبيار، شاب جزائري أصيب بصدمة جراء المأساة التي عصفت بأسرته، وُلد لأبوين من مناطق مختلفة من الجزائر: الأم من العاصمة والأب من نواحي باتنة.

كانت الأم ربة منزل نموذجية والأب متسلطًا عنيفا ونادرًا ما يكون في المنزل.

قصة مؤثرة ومثيرة للاشمئزاز.

ضابط الصف يُدعى مبروك، جاء من قرية تبعد حوالي عشرة كيلومترات من مدينة باتنة، ومثلها مثل جميع مدننا الكبيرة كانت تؤوي الأوروبيين والسكان الأصليين الذين كانوا يلعبون دور تجار العبيد، وعدد قليل من السكان المحليين المتعلمين والحركى أو أبناء القُيّاد والباشاغات الذين يعملون في الإدارة الاستعمارية، في سن العاشرة وجد نفسه يتيم الوالدين لأن الجيش الاستعماري قد دمر قريته، أما شقيقه الأكبر منه فقد التحق بصفوف المجاهدين، لذلك كان طيلة سنوات الحرب التحريرية بلا مأوى يتجول من قرية إلى أخرى.

قبل الاستقلال بقليل، كان قد انضم إلى جيش التحرير على أمل العثور على أخيه الأكبر، كانت فترة القتال هذه في صفوف المجاهدين قد زادت من قساوة قلبه وصقلت شخصيته.

بعد الاستقلال، عاد إلى منطقة الجزائر العاصمة مع مقاتلي جيش التحرير الوطني واستقر مع مجموعته في ثكنة رويسو التي تنازل عنها الجيش الفرنسي.

استوفت حالته العقلية وضعفه ووضعه الاجتماعي معايير تجنيد عملاء المخابرات، قضى حياته العملية كلها في الثكنات، من عام 1962 إلى عام 1997،

مع فترات متقطعة قصيرة قضاها مع عائلة حاول بصعوبة كبيرة تكوينها، تزوج في الجزائر العاصمة ولديه ثلاثة أطفال.

حاول العثور على شقيقه الذي استقرّ بعد الاستقلال مباشرة في وسط باتنة، لكن ولسوء حظّه توفي عام 1981 تاركًا وراءه أرملة وستة أطفال.

مع ظهور إرهاب (الدولة)، تطوع دون علم عائلته لقيادة ميليشيات في الشرق الجزائري، أثناء القيام بدوريات في الجبال والقرى كان يجد كل صباح جثثًا مقطوعة الرأس مرمية على حافة الطريق، لكن أولاده كانوا يظنون أن والدهم في مكان عمله المعتاد.

لم يكن على دراية أو يتظاهر بالتجاهل أن سمعته كمجرم، التي يمكن مقارنتها بسمعة المجرمين شنقريحة ومجاهد، قد وصلت إلى مسقط رأسه واستمرت في الانتشار إلى قرى أخرى حتى وصلت إلى مدينة باتنة.

كانت زوجته في الجزائر العاصمة قد سمعت ما يُقال عنه فاستجوبته عند عودته لأول مرة إلى منزل الأسرة، اعترف بكل شيء بحجة قيامه بعمله كعسكري فقط فحدث الانفصال و لم يعد إلى منزله منذ ذلك الحين.

بعد تركه لمنزل العائلة انتقل إلى باتنة لزيارة أبناء أخيه الذين كانوا حينها بالغين فرحّبوا به رغم نقاشاته الاستفزازية والسلطوية.

بعد ساعتين أو ثلاث ساعات عند خروجه من المنزل وبينما كان متوجهاً إلى سيارته على بعد بضع بنايات، اقترب منه شاب يخفي محشوشة (رشاش) في محفظة وفتح النار عليه، كسر صوت تفجيرين الصمت وانفجرت معدته إلى أشلاء

وسقط على ركبتيه سابحا في بركة من الدماء، ثلاثين ثانية كانت كافية ليختفي المارة من جميع الأزقة المحيطة.

وصلت سيارة إسعاف إلى مكان الحادث ونقل الرجل إلى المستشفى ثم تم تحويله إلى مستشفى عين النعجة العسكري حيث تم ترقيعه ووضعه على قدميه مرة أخرى، لم يتعلم أيّ درس ممّا عاشه وعاد طواعية إلى باتنة لتسوية الحسابات بالتأكيد.

بعد أن تم تعيينه في باتنة بدأ بزرع الموت في كل مكان، كان على رأس مجموعته يُمشّط كل يوم جزءًا من جبال الأوراس ويُعدم أي شخص يواجهه في طريقه، في كل مرة كان ينزل إلى أقرب ساحة عمومية لعرض رؤوس ملتحية مقطوعة بأسلحة بيضاء مثل غنائم حرب.

بعدها جاء ذلك اليوم الشنيع من شهر كانون الأول 1996 عندها تجاوز مبروك الخط الفاصل بين الإنسان والحيوان حين قرر الاعتداء على أبناء أخيه وهم آخر الناجين من سلالته.

في وقت متأخر من تلك الليلة، وعلى رأس مجموعة صغيرة من العسكريين الذين أخفوا وجوههم خلف لثام، داهم أرملة شقيقه ليبحث عن أكبر اثنين من أبناء أخيه، جرّهم نحو الطريق العام وعلى بعد مائة متر قطع رؤوسهم على طريقة «الإرهابيين» متجاهلاً توسلات الأم التي كانت تذكّره: «يا مبروك، تعرفت عليك، تعرفت عليك». «يا مبروك، هؤلاء أبناء أخيك، أبناء أخيك، ألا تفهم؟»

داخل ذلك الجسد البشري القاسي مات الإنسان و لم يتبقّى سوى الحيوان.

أنهى راوي قصة مبروك وهو ابنه الأكبر الحكاية دون أن يذرف أي دمعة قائلا: «مات كالكلب في شهر رمضان 1997 عندما كان ذاهبًا لشراء الشمّة (تبغ يُمضغ)، صدمته مركبة عسكرية فتدحرج رأسه نحو عشرين متراً وسقط جسده على قارعة الطريق، لم يلاحظ أحد غيابه حتى الصباح».

لقد تشاركت الحزن مع الرجل الذي كان يروي لي قصته لكنني لم أشعر بأي تعاطف مع الحيوان الذي دهسه زملاؤه.

انتقام أفراد الحواجز المزيفة:

يلقي هذا العنوان الضوء على الحواجز التي كان يتعين على المواطنين عبورها كل يوم، يمكن التعرف على الحواجز الرسمية من خلال الزي الرسمي الذي يرتديه رجال الشرطة والدرك وكذا المركبات التي يستخدمونها، الحواجز المزيّفة كانت من صنع جماعات مسلحة يرتدون ملابس إسلامية والتي تكون قوة عتادها وعدادها متواضعة ويمكن رؤيتها بالعين المجردة.

الحواجز المزيّفة الحقيقية هي من صنع رجال ملتحين بملابس إسلامية يتمتعون بعتاد ثقيل وكبير يسمح لهم بارتكاب جرائم ومذابح جماعية في القرى المعزولة دون حساب أو عقاب.

لدى الضابط مبروك والسجين الفار من لامبيز العم سعيد ت.، تشابه في التصرفات وردود الأفعال فكلاهما عانى من تدهور نفسي حاد أخرجهما من الوضع الطبيعي إلى الوضع الإجرامي وكلاهما عاش أحداثا في الماضي البعيد أثّرت على نفسيّته وتركت آثارا مروّعة.

نعلم أن الأول قد عانى في طفولته من فقدان والديه الذين يمثّلان لأيّ طفل في سنه الحماية والأمن وهو ما أنتج كل هذه الاضطرابات النفسية التي كانت سببا في دفع غريزته الإجرامية القوية.

أمّا العم سعيد ت. ترعرع في بيئته الطبيعية مثل جميع الأطفال حتى سن الرشد، لكن التجاوزات اللاإنسانية لأبناء عبلة (سابقًا عنتر) جعلت منه رجلا مليئا بمشاعر طبيعيّة فتحول إلى كائن متعطّش للإجرام تدفعه غريزة الانتقام المرتبطة بمعاناته الحديثة.

العم سعيد ت.، هو أحد الناجين من مركز عبلة (عنتر سابقًا) وسجين فار من لامبيز انضم طوعًا إلى جبهة القتال لإشباع تعطّشه للانتقام.

لن أذهب إلى حد الحديث بالتفصيل عن الأعمال المسلحة التي شارك فيها لكن ذلك الأب، الذي لم يكن حتى ناشطا في الجبهة الإسلامية للإنقاذ، انجر بالصدفة إلى دوامة العنف التي أطلقها قادة طاغارين المتعطشون للدماء.

أثناء إقامتنا في لامبيز كان يتساءل دائما عمّا إذا كان بإمكانه حقًا العيش لفترة طويلة وبما فيه الكفاية، كنت أعلم أنه يحمل في داخله شعورًا انتقاميا كنّا نتشاركه جميعًا، لكن فائض ذلك الشعور جعله يفقد السيطرة على نفسه وأفكاره إلى الأبد، لأنّ هاجس الانتقام غير قابل للشفاء.

كانت والدتي رحمها الله، التي دعمت والدي أثناء الاحتلال الفرنسي ودعمتني أيضًا ضد المحتلين الجدد لعام 1992، مسؤولة عن ضمان التواصل مع العم سعيد ت.، الذي كان يعلمني بانتظام عن أخباره حتى وفاته عام 1997 في جبال تابلاط.

حتى ظروف وفاته تعتبر وصمة عار على هذا الجيش الذي يجرؤ رجاله على إعلان أنفسهم ورثة جيش التحرير الوطني، يا له من عار أن تطلق قذيفة آر.بي. جي على رجل يحمل مسدسًا ولجأ إلى كهف! أي ضابط تعلّم مبادئ وشروط احترام كرامة الإنسان كان سيفكر في كيفية ومحاولة إنقاذ حياته.

الضباط المتخرجون من المدارس العسكرية جميعهم من ذوي المستوى الفكري المتوسط، فهم ضعفاء ينضمون إلى الجيش من منطلق الانتهازية أو لاستكمال نفوذ أحد الوالدين أو الأسرة، فلا أحد ينضم إلى الجيش من منطلق حب المهنة أو عن اقتناع.

وإلا كيف نفسر كل هؤلاء الجنرالات المعينين في المخابرات الذين يستخدمون المخبرين ووسائل إعلامهم طوال الوقت لنشر الكراهية بين الجزائريين؟ هذه الكراهية سواء كانت عرقية أو إيديولوجية أو سياسية أو حتى إقليمية فهناك رجال مدربون لإتمام هذه المهمة، إنهم قساة يشعرون بأنهم مكلّفون بإبادة فئة أيديولوجية من الجزائريين كما حدث خلال العشرية الحمراء، والتي يحب المثقفون، مثل هذا الأستاذ الجامعي وغيره، أن يسموها اليوم تطهيرًا عرقيًا على الرغم من أن والديهم كانوا يشغلون مناصب في صفوف رجال ميليشيا خالد نزار.

العم سعيد ت. الذي تعرض للتعذيب عند عبلة (عنتر سابقًا) انضم بعد هروبه إلى مجموعة حسن حطاب منذ البداية وعمل بإرادته في الحواجز المزيّفة والاشتباكات على محور بومرداس –تابلاط– البليدة.

إن الأعمال المسلّحة التي قام بها العم سعيد ت.، كما وصفتها والدتي، تتناسب تمامًا مع مواصفات مجرم مختل عقليًا.

كان يروي لكلّ من يريد سماعه أن عناصر جميع السلك العسكري التي يتم القبض عليهم في الحواجز المزيفة كانوا يخضعون لسلطته، من ناحية أقسم أنه لم يعدم أي شخص إذا لم يكن متأكّدا من هويّته، لكنه من ناحية أخرى، لم يستثن أيّا من أولئك الذين تبين أنهم عملاء في المخابرات أو مساعدين لهم.

الأعمال المسلّحة أثناء الكمائن والحواجز المزيّفة والاشتباكات والاعتداء على القوافل العسكرية وعمليات التمشيط، هناك أيضًا أقسم على أنّه ومجموعته لم يهاجموا أبدًا الخط الأمامي للجنود المشاركين في العملية خلال عملية التمشيط، لأنّهم يعلمون أنهم كانوا شباب الخدمة العسكرية تم استدعاؤهم لاستخدامهم في المقدمة تحت غطاء طرد الجماعات المسلحة من منطقة معينة، فأطفالنا الذين تم استدعاؤهم للخدمة الوطنية خلال تلك الفترة كانوا يستخدمون فقط كطعم ودرع لحماية القادة.

لقد أخبر والدتي في أواخر عام 1996 أن وقت موته قد اقترب وعبّر عن مدى فخره لأنه غسل الإهانة والإذلال اللذين عاناهما في بن عكنون على يد عملاء عبلة (عنتر سابقاً).

فِرق الموت

الملياني الناجي بأعجوبة:

«فرق الموت بشكل عام هي منظمات سرية وغير نظامية وغالبًا ما تكون شبه عسكرية، تنفذ عمليات قتل خارج نطاق القضاء وأعمال عنف أخرى (التعذيب والاغتصاب والقتل والخطف وما إلى ذلك) ضد أفراد أو مجموعات محددة بوضوح».

التعريف قام به البروفيسور بروس كامبل، المشارك في تأليف كتاب «فرق الموت بمنظور شامل: القتل مع الإنكار».

هذا أمر معروف أن فرق الموت هي مجموعات مسلحة شكلها الجيش والشرطة في كل الأنظمة الديكتاتورية، تهدف هذه المجموعات غير الرسمية المرتبطة بالدولة إلى نشر القمع السياسي والإرهاب الجسدي، مهمتهم الرئيسية هي إبادة أو القضاء على المواطنين محدّدين من قبل أجهزة أمن الدولة، حيث يختطفونهم من منازلهم ليلاً ثم يعدمونهم ويتهمون الجماعات الإسلامية بهذه الأعمال الإجرامية.

سأسرد في هذه المذكرات شهادتين حول هذا الموضوع، واحدة في عام 1995 لمواطن شاب نجا بأعجوبة من قطع رأسه على أيدي «مجموعات مسلحة» غير نظاميّة تمثل دولة الليل الموازية، في الماضي غير البعيد تم تشكيل فرق مشابهة في دول أمريكا اللاتينية من قبل السلطات التي تحكمها المجالس العسكرية ووضعوا على رأسها عسكريين متقاعدين.

كان هذا الشاب من سكان خميس مليانة وكان الناجي الوحيد من الموت بمحض الصدفة، كان يعيش مع والديه في عمر الثامنة والعشرين، في إحدى الليالي الممطرة حوالي الساعة 11 مساءً، بينما كانت الأسرة بأكملها لا تزال مستيقظة، طرق أحدهم بهدوء على باب شقتهم، فتح والده الباب دون تساؤل معتقدًا أنه الجار المجاور ليجد قبالته مجموعة مسلحة أخفى أفرادها وجوههم وراء الألثمة، جميعهم كانوا ملتحين ويرتدون القشابيات والأحذية الرياضية مدجّجين بالأسلحة.

بعد لحظة من التردد استأنف قصته:

«قدموا أنفسهم على أنهم دولة الليل وسألوا عنّي، ثم بدأوا في تفتيش الغرف، اقتحم اثنان منهم غرفتي وأخذوني من ذراعي وسحبوني إلى خارج المبنى.

بمجرد الخروج ألقوا بي في مؤخرة مركبة عسكرية مظلمة بلا نوافذ، كان هناك بالفعل ستة شبان من الحي الذي أسكن فيه، جميعهم في سني وكانوا يرتادون المسجد الوحيد في المنطقة، تابعوا جولتهم في الحي لمدة ساعة على الأكثر فأضافوا ثلاثة شبان آخرين كنت أعرفهم.

بما أنّ العدد قد اكتمل استأنفت المركبة الثقيلة رحلتها، مشينا حوالي عشر دقائق ثم توقفت السيارة، لحظات صمت طويلة قبل فتح الباب الخلفي للسيارة، كانت أيدينا مكبّلة والأعين معصّبة حين تمّ الإلقاء بنا في أسفل زنزانة كبيرة، كان المكان ثكنة فرقة الدرك الوطني لخميس مليانة وعرفته لأنّني كنت معتادا على الذهاب إليه».

هؤلاء الشباب الذين تم اختطافهم من منازلهم ظلّوا بلا حركة في الظلام الدامس، رؤوسهم على الرُّكب خائفين من نفس المصير الذي لاقاه من سبقوهم.

أخبرني محاوري وزميلي في الزنزانة بالتفصيل كيف حدثت له المعجزة التي أبقته على قيد الحياة، ثم توقف فجأة ونظر إليّ معتقدًا أنني لست مهتمًا فطمأنته قائلا: «لا، لا، استمر، كلّي آذان صاغية ولا أطيق الانتظار حتى أسمع النهاية».

فتابع على النحو التالي:

«بينما كانت الأحاديث تدور بشكل جيد في الخارج، أراد دركي فضولي أن يرى رؤوس الجثث المستقبليّة، ففتح الزنزانة وأشعل مصباحه اليدوي ليُنير الوجوه واحدا تلو الآخر، وعندما وصل إلي توقف ورفع العصّابة ببطء عن عيني، لقد كنت أنا، ابن عمه».

ثم واصل قصته:

«دون أن يفقد أعصابه، أخذني من يدي وأعاد مصباحه في جيبه، ونقلني مُستعجلا إلى زنزانة أخرى».

توقف عن الكلام فقد خنقته دموع لم يستطيع كبحها، ثم تنفس بعمق واستأنف قصته مرة أخرى قائلاً: «قبل الفجر بقليل، عادت المركبة العسكرية لاستعادة حمولتها البشرية التي تم إيداعها قبل فترة وجيزة» .

وأضاف أنه في الصباح، حوالي الساعة العاشرة، جاءت سيارة درك أخرى لتقودنا إلى المحكمة حيث تمّ عرضنا على المدعي العام ووجهت إلينا تهم مُفبركة، ونحن محتجزون في سجن خميس مليانة».

لمدة أسبوعين، كان الحداد والحزن يسيطران على والديه فلم يكن هناك ما يشير إلى مكان تواجد ابنهما لأنّه كان الوحيد المفقود من المجموعة.

تم العثور على رفاقه الذين اختطفوا معه في تلك الليلة بعد أن تمّ ذبحهم وتقطيعهم ورميهم في ذلك الصباح على بعد كيلومتر واحد من البلدة في الخنادق على جانب الطريق.

خلاصة القول إن هذه القضية دليل ممتاز على أن الجماعات المسلحة التي أحدثت الفوضى في مدننا وقرانا كانت من صنع الدولة بشكل مباشر.

إن التنسيق بين فرق الموت والدرك والشرطة يثبت أن هذه المنظمة الإجرامية المكلفة بزعزعة راحة المجتمع واستقراره من خلال الإرهاب تعمل وتنشط تحت رقابة المخابرات ودائرة الاستعلام والأمن.

الإخوة المزيفون:

الشهادة الثانية هي شهادتي الشخصية وهي تكشف التورط المباشر لرجال المؤسسة العسكرية في الجبال.

بعد إطلاق سراحي في نهاية عام 1997، على الرغم من تناوب المخبرين أمام منزلي والتنصت على الهاتف، تمكنت من الاتصال بأصدقائي الذين كانوا لا يزالون في الجبال آنذاك وهم الآن قد قابلوا الرفيق الأعلى.

مستغلاً حدوث وفاة في العائلة في منطقة القبائل، بقيت لمدة أربعة أيام بعيدا عن منزلي دون إثارة شكوك الجيران، نعم، جيراني منذ أربعين عامًا ومخبرون في الخدمة.

قبل الفجر بوقت قصير، ظهر الرجل المسؤول عن مرافقتي إلى معارفي الذين كانوا لا يزالون نشطين في الجبال وقدّم نفسه لسائق السيارة المستأجرة كما هو متفق عليه، كان علينا أن نقطع مسافة 180 كيلومترًا قبل أن نصل إلى النقطة المحددة للالتقاء مع المرشد قبل الساعة 8 صباحًا.

كان يوم السوق في هذه المدينة الصغيرة، كان رجالنا في الجبال يقومون بتجارة مُربحة، لا يمكنكم تصوّر ذلك أبدا، لا قنب هندي ولا كوكايين بل اللحوم بأسعار مناسبة لجميع الميزانيات.

وصلنا إلى وجهتنا، التقينا بالمرشد، شاب في الثلاثين من عمره بدا لي في حالة بدنية جيدة، دعانا إلى المقهى، كان بداخله مجموعة من ثمانية أشخاص حول طاولة، أربعة متفرجين وأربعة لاعبين دومينو، جلسنا بجانبهم، وكأن شيئًا لم يحدث حيث واصلوا اللعب، بينما هو واقفا بزاوية تطل على الغرفة بأكملها وبدأ في الكلام وعينيه لا تحيدان عن المدخل، أعطانا تعليماته، كان يكرر كل تعليمة مرتين إلى ثلاث مرات، استمر لعب الدومينو وهو غادر المقهى أولاً.

الآن كان علينا اتباع التعليمات حرفياً حيث سنخلي المكان بالترتيب المتفق عليه: أنا وسائق التاكسي سنغادر المقهى، بعده بعشر دقائق يتوجب على لاعبي الدومينو إنهاء اللعبة ودفع ثمن مشروباتهم ثم الخروج ، بقية المجموعة ستلتحق بنا وفقًا للتعليمات المقدمة.

إن رغبتي في الانضمام إلى الجماعات في الجبال ليست بأي حال من الأحوال بدافع استئناف الخدمة، حتى لو كانت الرغبة في الانتقام متواجدة وستظل طوال حياتي لأنّه الشعور السائد في كياني كله، لم تستطع فقط روحي الحساسة أن تعترف بأن الرجال المليئين بالسخاء والتواضع والشهامة يمكن أن يرتكبوا جرائم ضد شعبهم، ضد الأبرياء والمعوزين والفقراء الذين لا حول لهم ولا قوة.

لقد تعهدت بأن أقدّم لهم دعمي الثابت حتى نهاية أيامي لكنني أردت تهدئة المخاوف بشأن شرعية أفعالهم، أردت أن أرى بأمّ عيني وأسمع ذلك شخصيًا.

كانت نقطة الالتقاء المحددة على بعد 20 كيلومترًا، وكانت التعليمات هي ركوب كل مجموعة لسيارة أجرة كل عشرين دقيقة، التقينا جميعًا في نفس المكان حوالي الساعة الثانية ظهرًا، توقفنا عند منزل عائلة عند سفح الجبل مضيافة جدا، قدّموا لنا وجبة مشبعة من الكسرة واللبن والتمر.

كان في انتظارنا طريق طويل عبر ممرات وعرة شديدة الانحدار على امتداد عشرة كيلومترات -تقريبا- من التسلق، كان الانطلاق مقرّرا عند نهاية اليوم.

بعد ثلاث ساعات وصلنا إلى هدفنا، وجدنا الإخوة الذين لم نرهم منذ سنوات باقين هناك، رحبّوا بنا بحرارة وحضّروا وليمة كبيرة على شرفنا.

أمضينا يومين وثلاث ليال في المخيم، لم نناقش شيئًا سوى المذابح والقتل الجماعي المنسوب إلى الجماعات الإسلامية كما أعربت عن مخاوفي وطالبت بإجابات لا لبس فيها، حينها تم عقد اجتماع صغير حول طاولة شاي مع الأعضاء الأكبر سنًا في المجموعة الذين لن أذكر أسماءهم لأسباب أمنية.

كانت الإجابات والحجج المقدمة مقنعة جدًا بل أكثر من ذلك حين أيّدوا كلامهم بالأدلة المادية وبصراحة شعرت بارتياح شديد خاصّة عندما علمت أن الجماعة المسلحة، مرتكبة المجازر في هذه المنطقة، قد استقرت على مسافة كيلومتر واحد تحتنا، وأن عناصرها يفرون منها بأسلحتهم نحو الجماعة الإسلامية الحقيقية عندما تسنح لهم الفرصة.

أجريت مقابلة مع آخر هارب منها كان لا يزال مصابا في ساقه من قبل ملاحقيه فأخبرني أن معظم عناصر المجموعة مشتبه بهم وأن شبابًا مثله قد انضموا إليها من خلال مجندِّين في الأحياء، لكن بعد وصولهم أدركوا أنهم ارتكبوا أكبر خطأ في حياتهم، تمكن البعض من الفرار بينما قُتل آخرون بالرصاص أثناء فرارهم.

كان الهدف من وجودهم في هذه الجبال ترويع وترهيب السكان المشتبه في دعمهم لجماعات إرهابية أخرى.

«أحيانًا كان يتم إعطاء التعليمات للأمراء، وهم خمسة جميعهم مزودون بأجهزة اتصال لاسلكي، عند حدوث ذلك تتعرّض قرية أو مجموعة من الناس للهجوم، في البداية كنت متورطًا في ما اعتقدت أنه أمر مشروع لكن في النهاي أدركت أنها خدعة لذلك قررت أن أهرب، وها أنا مع إخوتي الذين ساعدو وعالجوا إصابة ساقي».

سألته سؤالا أخيرا: «من هم؟» فأجاب: «جماعة مسلحة لا تختبئ، لا تأخذ الحيطة في تحركاتها، تشعل النار ليلا لتدفئة نفسها، وتحصل على المعلبات والجبن، ولا تعمل إلا في الليل، فهذا يعني أنّها ليست غريبة عن الدولة أو الجيش».

لكنّني بقيت أشعر بالفضول لرؤية وجود هذه المجموعة ومعسكرها بأمّ عيني فسألت إذا كان بإمكاني المجازفة بالذهاب لمراقبة إرهابيي الدولة هؤلاء وإذا كان بالإمكان إرسال اثنين من المقاتلين معي فقبل الأمير، الذي كان رجلا طاعنا في السنّ، طلبي.

في اليوم التالي وبعد صلاة الفجر انطلقنا نزولًا إلى معسكرهم، حينها لاحظت بنفسي الفرق بين المعسكرين فالنظافة والنظام غير موجودين بتاتا في معسكر إرهابيّي الدولة، كانت نار المخيّم لا تزال مشتعلة والجميع نيام إلا واحدًا من الأمراء الخمسة الذي كان يقوم بجولة مراقبة خوفا من أن يقل عددهم بفرار من لم يقتنعوا بقتل الأبرياء في ظلمة الليل، لا يوجد حرّاس ولا إجراءات أمنية لأنّهم كانوا في اطمئنان تام، كان هذا كافيا بالنسبة لي و لم يبق في ذهني أي شكوك.

في تلك الليلة ناداني الأمير إلى خيمته لأستمع إلى المحادثات الفظّة والدنيئة التي كانت تدور بين رجال الدرك وشرطة المدينة مع إرهابيّي الدولة.

في اليوم الثالث تركنا المخيّم في الصباح الباكر باتجاه المدينة وتمت مرافقتنا حتى الطريق الوطني.

جرائم الأصول:

العديد من الجرائد الإجراميّة كانت تساند العسكريين وكلّما كانت تفاصيل مرعبة حول أساليب التعذيب في أروقة مكاتب المخابرات تنتشر كلّما كان الحبر في وسائل إعلام النظام يسيل لإفراغ حقد كبير تجاه تلك الفئة من الجزائريين التي وضعها النظام العسكري في فوهة المدفع، على رأسها جريدة «ليبارتي» التي كان يموّلها الملياردير يسعد ربراب.

ومن أجل توضيح الدور المباشر لرجل الأعمال في إراقة دماء الأبرياء هو تقديمه لصالح المخابرات لعدد من عماله الذين تمّ تدريبهم بسرعة كبيرة وتسليحهم وتنصيبهم كحراس شخصيين للإطارات السياسية في تلك المنطقة.

كان أحد العاصميين يُدعى سعيد ر. يعمل لصالح يسعد ربراب في العاصمة، كان أبا لثلاثة أطفال هادئا وساكنا يعيش مع والديه لعدم حصوله على سكن وبما أنهم وعدوه بالحصول على شقّة في الأيام القادمة قبل بالعمل المطلوب منه.

كان ابنه شابا في التاسعة عشر من عمره يُدعى طارق ر.، له صلات مع مجموعة سيد أحمد مراد المعروف بالاسم المستعار «جعفر الأفغاني»، لم يتقبّل نهج والده لأن الصغار غير قادرين على ترجمة الشغل الشاغل للوالدين: وضع سقف مريح فوق رؤوس أبنائهم مهما كلّف الأمر وبأي طريقة كانت.

في كل مساء كان الأب والابن يتجادلان حول نفس الموضوع، يريد طارق من والده أن يعيد هذا السلاح الذي يضع حياته في خطر فهو يخاف عليه لأنه كان وسط الجماعات ويعرف معايير العدو والمواطن المحايد لديها.

كان الأب ينزعج من إصرار ابنه فنهض ذات مساء في منتصف العشاء وأخرج مسدسه الماغنوم، وهو سلاح يدوي مخيف، وهدد طفله قائلاً: «كلمة أخرى وسأقتلك كالكلب، أعلم أنك إرهابي، هيا، اتركني وشأني».

وصل الأمر إلى نقطة الانفجار، صُدم الابن فنهض ودمه يفور وغادر الطاولة و لم يعد أبدًا... حياً.

تم استهداف والد طارق ر.، من قبل الجماعات المسلحة المحلية لحمله طوعاً سلاحاً، ولكن نظراً للخلاف بين الأب والابن تم غضّ النظر عن القضية مؤقتاً.

في صباح أحد الأيام، مر سعيد ر.، كالعادة إلى البقال لشراء أكياس الحليب التي يأخذها إلى المنزل قبل أن يغادر إلى العمل، وبينما صعد إلى سيارة الشركة التي قدمها له الملياردير شريك شقيقة توفيق مدين، رأى ابنه يقترب منه فجلس على المقعد تاركا باب السيارة مفتوحا ليشحن المسدس برصاصة بكل هدوء، لاحظ الشاب مناورة أبيه فتأرجح قليلاً إلى اليسار لتفادي زاوية التصويب إذا حدث ذلك بالفعل.

سيطر الخوف على الرجلين. من سيُبدي ردّة الفعل أولاً، الأب أم الابن؟

كان الناس يراقبون المشهد الذي بدا تافهاً بالنسبة لهم، فهم لم يكونوا على علم بأنّ مأساةً على وشك الحدوث.

قام الأب الذي كان غير قادر على التحكم في أعصابه بحركة مفاجئة بسلاحه فتم سماع صوت طلقتين تشقّ صمت الصباح، بعدها استدار الابن ومشى في الاتجاه الآخر، سقط الأب على المقعد مرديًا ووجهه مغطى بالدماء.

حتى يومنا هذا لا أحد يعرف من أطلق النار، هل هو الابن أو شخص ثالث.

رعب شديد:

سأحاول في هذا الجزء من الكتاب أن أصف المشاهد التي أنزلت مرتكبيها إلى الوحشية، مشاهد لم يجرؤ الجلادون الستالينيون على ارتكابها في معسكراتهم، مشاهد لم يجرؤ جيش بيجار على تطبيقها في حربه على الجزائر، مشاهد لم يجرؤ عليها حتى هتلر النازي في معسكرات الاعتقال، مشاهد تعمدت الفرق النزارية ارتكابها على المواطنين الجزائريين.

الضحيتان، شقيق وشقيقته، لن أذكر أسماءهما في هذا الكتاب لكنني سمحت لنفسي بسرد قصتهما دون إخطارهما مسبقًا، مشهد من التعذيب لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية، أو لم يتم الكشف عنه علانية.

في صفوف مؤسسات القمع والجيش والدرك والشرطة الجزائرية هذه، تم تدمير نفسية الإنسان بالكامل أو فقدها إلى الأبد، تغيرت مشاعرهم الطبيعية تمامًا مع انتشار التعذيب الممنهج، وشيئًا فشيئًا انتقلوا من إنسان إلى حيوان.

أفهم تمامًا صمت الضحايا وأوافقهم الرأي، علاوة على ذلك وبعد سنوات عديدة، هل سيكون لديهم القوة لرواية مشاهد لا تطاق من الناحية البشرية؟ هل سيكونون قادرين على ربط الأحداث والأفكار والمشاعر كما مروا بها وفكروا بها وشعروا بها حينها؟ بالتأكيد أمر مستحيل، لكن لا أحد يستطيع أن يفعل ذلك أفضل منهم.

ستكون الكلمات غير كافية بالتأكيد والقصة ناقصة كذلك لكنني سأظل أحاول أن أستذكر الرعب الذي لا يمكن تصوره والذي عانى منه الأخ وأخته، دون تعليقات ودون تحميل النص بمشاعري الشخصية.

كيف يشعر الرجل، بالمعنى الحقيقي للكلمة، المتدين والمثقف جدًا عندما يضطر إلى النظر إلى أخته الصغرى عارية تمامًا محاطة بحثالة تنهش بثديها وعورتها؟

كيف تشعر فتاة من أسرة طيبة وهي تشاهد شقيقها الأكبر وهو يُجرد من ملابسه ويتعرض للتعذيب من أعضائه التناسلية والاعتداء الجنسي عليه؟

هل سيتمكن العلماء يومًا من وصف الظروف والزمان الذي يمكن فيه للرجل أن يتخلى عن صفاته البشرية لدرجة مصادرة طبيعته البشرية؟

كيف يمكن أن يتصرف المرء إذا تعرض أخ وأخت عاريان تماما للتعذيب جنبًا إلى جنب على نفس المقعد أمام عشرات الضباط المفترض أنهم حُماة على سلامة وأمن الشعب؟

منتهى الرعب المقزّز الذي لم يحدث في أوشفيتز لكنه حدث بالفعل بين عملاء دائرة الاستعلام والأمن الجزائرية: بلغوا قمّة الهذيان حين قاموا بربط الضحيتين العاريتين وجهاً لوجه، عورة مقابل عورة عن طريق لف حبل طويل حول جسديهما من الرقبة إلى الركبتين لساعات طويلة.

تخيل كم من الوقت يمكن لشخص، رجلًا كان أو امرأة، أن يتحمّل ذلك مع استمرار هذيانهم الجماعي غير المحدود لإظهار جميع جوانب الانحراف والسادية المنتشرة في مؤسسات الدولة هذه.

ثمّ ارتكبوا أكثر الأعمال مهينة باغتصابهم جماعياً امرأة شابة أمام شقيقها الذي أُجبر على مشاهدة شذوذهم الجنسي.

فيو فرانكنشتاين:

لقد قلت في البداية أنني ساعود إلى رحلة قمت بها بين 10 و12 يناير 1994، لا أتذكر جيدًا بعد 26 عامًا من ذلك التاريخ، ومع ذلك أسترجع أنني وضعت في سيارة وعيناي معصوبتان واليدين مكبّلتين وراء ظهري وخرجنا في وضح النهار، كنا نسير ببطء فشعرت بحركة مرور في وسط المدينة، بعد ساعة من السير توقفنا عند بوابة أفترض أنها بوابة حديدية ثقيلة من الصرير الذي تصدره عند الفتح.

أمسكوني من الذراعين عميل على اليمين وآخر على اليسار وسرنا بشكل مستقيم لمسافة 30 مترًا ثم دخلنا رواقًا مظلمًا وباردًا.

نزعوا العصابة عن عيني وحرروا يدي اليمنى، واحد منهم أضاء بمصباحه المكان وأشار إلى طاولة بها جسم مغطى بقطعة من البلاستيك الأسود، اقتربت وأزلت البلاستيك فظهر رأس بشري مشوه، أمسكت به من أذنيه لكن جلد الوجه انزلق إلى الأعلى، حتى لو كان صديقًا فلن أتمكن من التعرف عليه أبدًا، ومع ذلك فقد بذلت قصارى جهدي لفعل ذلك.

نظرت فوق كتفي فقال لي أحدهم:

- هل تعرفه؟
- لا، لا أعرفه.
- إنه من نفس حيك.
- إنه مشوه، لا يمكنني التعرف عليه.

ثم أدار شعاع الضوء نحو الحائط خلفي وأضاف:

- سوف ينتهي بكم الأمر جميعًا هنا أيها الإرهابيون».

كانت هناك هياكل بشرية متكئة على الحائط، بعضها واقف بشكل مستقيم والبعض الآخر يميل إلى اليمين أو اليسار، هل كانوا أحياء أم أموات؟ الله وحده من يعلم.

هل يوجد بلد في تاريخ البشرية يعامل أبناءه بمثل هذا الإجرام؟

لقد اختارت الطغمة العسكرية خلق مناخ من الإرهاب، ولعب رجالها، الذين من المفترض أن يخدموا الأمن القومي، دور المافيا والبلطجية، وأطلقوا العنان لفائض من العنف السادي والوحشي.

تذكرني هذه الأحداث بالسبب وراء إقسام رجل دركي معروف لدى الجزائريين باسم بولفراد في وقت من الأوقات على قتل أي عنصر من قوات الأمن يجده في طريقه.

خاتمة

ما هو المبرر لكتابة هذه المذكرات؟ إنها الحاجة الماسة إلى إعادة المؤسسة العسكرية إلى مكانها الطبيعي في المجتمع والتي أحكمت قبضتها منذ الاستقلال بقوةَ السلاح على سلطات الدولة الثلاث: التشريعية والتنفيذية والقضائية.

بعد أحداث عام 1988 زاد الانفتاح الديمقراطي قصير الأمد من دائرة تدخلها في سياسة البلاد، ووصل على مر السنين إلى أبعاد مقلقة بسطت سيطرتها على جميع موارد البلاد الوفيرة من خلال الحيل وتوجيه الثروات بشكل قانوني إلى كبار الضباط من خلال مؤسساتهم أو أنشطة مرتبطة بالجيش.

وهل يمكن أن يؤدي وجود أمن عسكري في هذه الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية إلى صدام مع نظام ديمقراطي؟

أنا لست أفضل من يمكنه التأكيد على الحاجة إلى أجهزة الأمن والاستخبارات -حتى لو توجّب أن تعمل في سرية- بشرط أن تكون على قدّ المسؤوليّة وتحت المراقبة وخاضعة للمساءلة عن جميع أنشطتها، وهذا ما ليس متاحا بعد في الجزائر.

تتمتع مخابراتنا السرية بالفعل بسمعة طيبة بين نظيراتها الفرنسية والأمريكية والبريطانية... إلخ. لقد اكتسبت سمعة زائفة لأنها تجهل أن وكالات الاستخبارات الأجنبية هذه، والتي تمثل ركيزة مهمة للدفاع عن المجتمع وحرياته المدنية وقيمه المشتركة، لديها إمكانية الوصول إلى أصغر التفاصيل عن أنشطتها «السرية» التي تمثّل، حسب مفهومهم، عن عمل الشرطة السياسية الهادفة إلى القضاء على أي «نزعة إرهابية» ضد الغرب.

وهم يعرفون أيضًا أنه عبر التاريخ كان القادة في أي دولة شمولية يحكمون بقوة بوليسية سياسية تتلاعب بـ «الانتخابات الحرة» وتقبض السيطرة على مواطنيها وتقمعهم بقوة السلاح والقتل.

في كل دول العالم، الأفراد الذين يلتحقون بالتشكيلات العسكرية ليسوا أبدًا من خرّيجي الجامعات بل هم من المستويات الدنيا ويقومون بذلك بدافع الضرورة والحاجة، ولكن نادرًا ما يكونون بدافع حبّ المهنة.

نحن بحاجة ماسة إلى الاتحاد والتضامن لإنقاذ هذه الدولة -الأمّة- التي يقودها نظام منحطّ إلى العدم وبشكل لا يمكن إصلاحه.

لأنه في الوقت الذي تمكّن فيه الحراك من وضع الجزائر على المسار الصحيح وإدخالها في حقبة جديدة من دولة القانون، عادت التصرفات الاستبدادية القديمة للظهور من نفس المصادر التي لا تزال تعتقد أن لها الحق في تقرير الحياة والموت على الشعب الجزائري كله.

لكن النضال سيظلّ مستمرًا.

أعمر رامي، من مواليد 1954 بأزفون منطقة القبائل.

- هو أحد الناجين بعد خمس سنوات من التعذيب والإكراه البدني المستمر.
- اشتغل كمستشار توجيهي وفني في وقت مبكر لاعتبارات أسرية.
- بعد أداء الخدمة الوطنية، وما لاحظه من تحطيم للكرامة الإنسانية، اتجه نحو تبني الأيديولوجيات المقاومة لغطرسة العسكر فتبنى الفكر اليساري ثم الإسلامي المقاوم مع المجاهد مصطفى بويعلي وصولا إلى مناصرة حزب الجبهة الإسلامية للإنقاذ ثم توقيف المسار الانتخابي وبداية ترهيب الشعب الذي آمن بمقاومة الطغيان والظلم الذي تعرض له من طرف الأوليغارشية العسكرية كما سماها.
- اعتقل وحوكم من قبل محكمة خاصة خلال العشرية الدموية.
- وصل إلى لندن عام 1999، وأصبح ناشطا مع العديد من المنظمات الحقوقية والإنسانية، وزار العديد من الدول التي شهدت تجارب مماثلة كالتي تشهدها الجزائر.
- كاتب في العديد من المواقع الصحفية وعلى شبكات مواقع التواصل الاجتماعي، حيث سخّر قلمه لفضح الأوليغارشيات المتحكمة في صناعة القرار في الجزائر، وهذا الكتاب يعتبر أول تجربة مريرة له يسرد فيه المعاناة التي عاشها والتي ما زال … لاتها جرّاء حكم العسكر.

السعر: 75 د

